خزعل الماجدي

متون سومر

الكتاب الأول

التاريخ ◆ الميثولوجيا ◆ اللاهوت ◆ الطقوس

Bibliotheca Alexandrina
0136715

الأهلية

متون سومر

الكتاب الأول

التاريخ ◆ الميثولوجيا ◆ اللاهوت ◆ الطقوس

خزعل الماجدي

متون سومر

الكتاب الأول

التاريخ ◆ الميثولوجيا ◆ اللاهوت ◆ الطقوس

الأهلية

الأهليـــة للنشـــر والتـــوزيع
المملكة الأردنية الهاشمية - عمـان / وسط البلد
خلف مطعم القدس ؛ ص . ب ٧٧٧٢
هـاتف ٤٦٣٨٦٨٨ - فاكـس ٤٦٥٧٤٤٥

منشورات الأهلية لعـام ١٩٩٨
خزعـل المـاجدي / متـون ســومر
الطبعة العربية الأولى
حقوق النشر محفوظة للناشر ©

تصميم الغـلاف ®
التنضيـد : مؤسسة ياقوت للخدمات المطبعية

طبـــع في لبنـــان
على مطابع شركة الطبع والنشر اللبنانية

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه ، أو تخزينه أو نقله بأي شكل من الأشكال ، أو تصويره ، دون إذن خطي مسبق من الناشر .

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, without the prior permission of the publisher.

إلى

عليّ

ولدي

دموزي الذي يحمل الخصب والجمال

عساه يسمع صوت سومر نابضاً في قلبه الغضّ

مقدمة

تزداد ، مع تقادم الزمن، قناعة الباحثين والمؤرخين بأن كلّ ما ورثناه من نواميس حضارية وثقافية وفنية وروحية يعود في أصوله الى البذور السومرية التي هي أقدم بذور حضارة الإنسان وثقافاته في مطلع ما يسمى بـ (العصور التاريخية) .

كانت المتون الأولى للإنسان في حقول الدين والشرائع والملاحم والآداب والفنون والأساطير والرياضيات والطب والفلك والكيمياء، متوناً سومرية، ولا خلاف على ذلك اليوم بين مؤرخي الحضارات القديمة .

لقد امتلك كل حقل من هذه الحقول، مع ظهور سومر ، جهازاً معرفياً واصطلاحياً وحفل بنصوص غزيرة كانت الأساس الذي بنيت عليه منطلقات هذه الحقول عند الامم الوارثة أو المجاورة لسومر .

وكانت حضارات وعقائد ما قبل التاريخ إرهاصات أولى من أجل تكوين ثقافة شديدة التماسك والوضوح وذات نظام حضاري وروحي وثقافي وديني دقيقٌ ومفصل. . . وكانت سومر المهد الذي تشكلتْ فيه ملامح هذه الثقافة .

لقد حاولنا في هذا الكتاب دراسة أربعة حقول أو متون أساسية من متون الثقافة السومرية هي (التاريخ، المثولوجيا، اللاهوت، الطقوس)، وسعينا لكشف أعماق هذه المتون فلم نكتف بالسرد التقليدي للنصوص التي تقع في هذه المتون بل عمدنا إلى التحليل والمقارنة سعياً للوصول الى نتائج جديدة .

حاولنا في البداية وصف الحضارة السومرية وأهميتها، ثم وقفنا أمام التاريخ السومري في محاولة جدّية لتقسيمه إلى حقب وأزمان متجانسة على أساس الطبيعة السياسية والإجتماعية لكل فترةٍ مرّ بها هذا التاريخ .

سيتّعرف القراء من خلال هذا الكتاب على المثولوجيا السومرية من منطلق بحثي جديد ومن طريقة جديدة في التصنيف والسرد والمعالجة ، فقد حاولنا ترتيب شجرة أنساب دقيقة للآلهة السومرية ودخلنا منها لمعالجة اساطير ورموز وقصص الأدب الديني

السومري . . ولذلك بدا الأمر متسلساً مفصلاً واضحاً وتجنبنا ما تطرحه الكتب التي تبحث في هذا الأمر من فوضى وتداخلات لا نهاية لها .

وكانت لنا وقفةٌ جديدة مع اللاهوت والعقائد الدينية السومرية فقد عرضنا لأهم هذه المعتقدات الروحية والفكرية والتي شكلت نقاط انطلاق في نسيج العقيدة الدينية السومرية ، فعرضنا لماهية الآلهة عندهم وفكرة الألوهية وعلاقة الآلهة ببعضها وبالإنسان والطبيعة ، ثم عرضنا بعض أوجه الفقه السومري والقوانين والعادات الدينية التي تنظم الحياة الاجتماعية عندهم ثم تفصلنا في دراسة المؤسسة الدينية السومرية وأنظمتها الكهنوتية والمعبدية . وبعد ذلك وصفنا بعض أوجه العقيدة الدينية من خلال الحكماء السبعة والقوة الالهية وعقائد الموت وأفكار الجنة والنار والحساب والعقاب والثواب . وأفكار الأرواحية والتشبيهية وفكرة العود الأبدي . . وتتبعنا جذور الغنوصية والهرمسية إلى الأصل السومري لها .

أما الطقوس والشعائر السومرية فقد عالجناها بالتفصيل وقد أعاننا تبويبها إلى طقوس (يومية ، مناسبات ، دورية ، سريّة) لظهور طريقة عرض جديدة جعلتنا نطرح أغلب ما عرف عن هذه الطقوس ونجمع ما يشترك فيها قرب بعضه .

وإذا كان كتابنا هذا قد عرض هذه المتون الحضارية الأربعة لسومر ، فإن كتابنا القادم سيعرض لأربعة متون أخرى وهي (اللغة ، الآداب ، الفنون ، العلوم) وبذلك نكون قد أتينا على وصف وتحليل معظم جوانب الحضارة السومرية . ورغم أن الكتابين يكملان بعضهما لكن هذا لا يمنع من استقلالية كلّ كتاب بمادته .

وأخيراً . . نودُّ أن نعتذر سلفاً عن ما سهوناه أو عبرنا عليه أو لخصّناه بعجالة ، فبحار سومر عميقة وغزيرة ونتمنى أن نكون قد قدمنا منها ما يروي بعض العطش الروحيّ للقارئ الباحث عن الينابيع الأولى لحضارة الإنسان على وجه هذه الأرض .

خزعل الماجدي

دكتوراه تاريخ قديم

التراث الفكري والعلمي

١٩٩٧/٧/٨

الفصل الأول

المعجزة السومرية

(مدخل إلى الحضارة السومرية والتاريخ السومري)

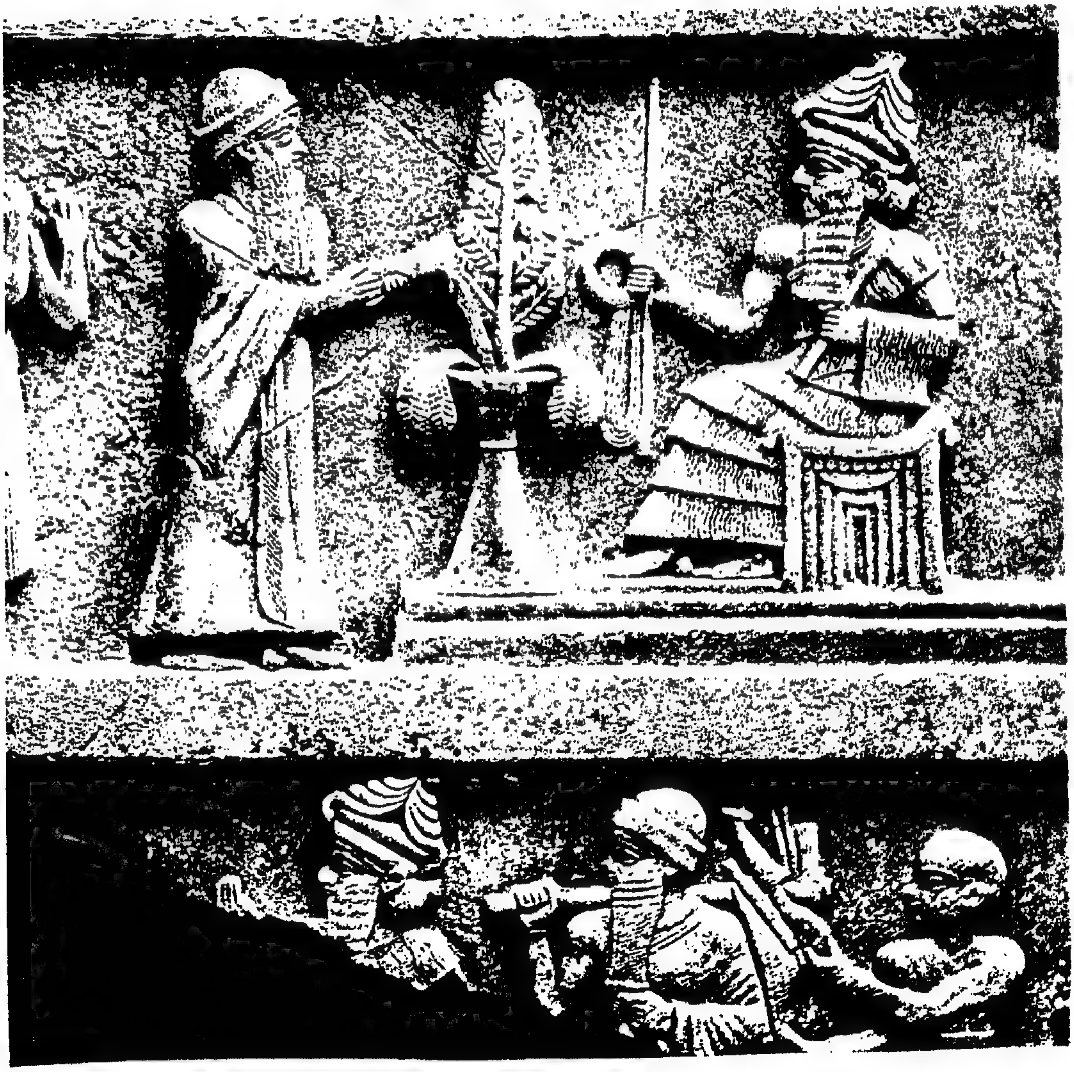

القسم الأول

الحضارة السومرية

أرى أن التاريخ البشري، على مستوى الإنجاز الحضاري المادي والثقافي، قد أمدنا بثلاث معجزات نوعية كبرى، كانت كلّ معجزة منها الأساس الراسخ لحقبة بشرية طويلة ظهرت فيها حضارات عديدة.

المعجزة الأولى هي المعجزة السومرية، وأستطع أن أسميها معجزة التأسيس أو معجزة الأصول، فقد وضعت الحضارة السومرية الأسس الأولى الراسخة والنوعية والمتينة المادية والثقافية والروحية التي سارت عليها البشرية بعدها.. مثل الكتابة والتشريع والدين والعلوم والآداب والصناعات والحرف والفنون والقيم الأخلاقية والطب والعمارة والري والفكر وغيرها وقد أطلق السومريون أنفسهم على نواميس الحضارة هذه مصطلح ال (مي) الذي أحصى منها الباحثون أكثر من مائة ناموس حضاري.

ولم تكن نواميس الحضارة وأصولها موجودةً قبل السومريون إلاّ بالشكل البدائي لبعضها، والذي لم يكن قد تبلور أو وصل الى حدّ الإنجاز النوعي المؤثر.

مع السومريين انعطف التاريخ وظهرت العصور التاريخية التي ضجت فيما بعد بالحضارات والمدنيات المختلفة للجنس البشري الذي يعيش على وجه الأرض. ونرى أن جميع ما ظهر في هذه الحضارات التي تلت السومرية حتّى الحضارة اليونانية ماهو إلاّ

تنويعات وإعادات وصياغات قومية جديدة حصلت هنا وهناك كان جوهرها المنجز السومري مع تطويره وانضاج بذوره التي بذرها في منطقة الأصول .

أمّا المعجزة الثانية فهي المعجزة اليونانية التي هي معجزة الإكتشاف وبناء التفاصيل، وإعادة النظر نوعياً بكل مفردات التأسيس السومري مباشرة أو عبر ما وصلها من حضارات متطورة أخرى، واكتشاف وتوسيع حقول المعرفة البشرية القديمة والجديدة، فهي معجزة نوعية بالقياس إلى ما قبلها من حضارات ومنجزات .

أما المعجزة الثالثة فهي المعجزة الغربية التي بدأت عملياً مع عصر النهضة الأوربية وما زالت إلى اليوم تتصاعد ذرواتها في أوربا وأميركا . . ويمكننا أن تطلق عليها معجزة الإختراع، فقد طغت عليها الجوانب التقنية، ووضعت الأساس العلمي لكل حقول الحياة وجعلت إمكانيات درسها ونموها وتطويرها مفتوحة الآفاق . . وهي بذلك تكون قد حررت العقل البشري من قيود كثيرة ووضعت بالمقابل ضوابط قياسية للبحث في حقول المعرفة البشرية وتطوير آفاقها .

هذه المعجزات البشرية الثلاث لا تنفصل عن بعضها ولا ينفرد قومٌ معيّنون بانجازها كاملةً، بل نرى أن كل الجنس البشري وأعراقه وقومياته ساهمت بطريقة أو بأخرى بتكوينها وتهيئة مادتها الأساسية، لكن لحظة الإنعطاف النوعي كانت بلا شك من نصيب قومٍ معينين .

لقد كانت المعجزة السومرية لحظة نوعية لكل منجزات الإنسان منذ العصور الحجرية، وخصوصاً ذلك التسارع الحضاري الذي بدأ باكتشاف الزراعة في الألف التاسع أو الثامن قبل الميلاد . . . ثم انفجر نوعياً في سومر عند اكتشاف الكتابة في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد، وأنفتحت معه آفاق عظيمة كانت أساس كل الحضارات بعد سومر . لقد ساهم قبل سومر في إنضاج هذه المعجزة أقوام كثيرون نجهل اسماءهم الحقيقية ولكنهم كانوا يعملون بدأب في منطقة أطلق عليها أرنولد توينبي اسم (الأويكومين) وتساءل في أكثر من مكان في كتابة تاريخ البشرية : «أين اخترعت الزراعة وتربية الماشية والتعدين . في الايكومين، للمرة الأول ؟» ولكنه توصل إلى جواب واضح بعد مناقشة طويلة إلى أن هذه المنطقة كانت بالدرجة الأساس في الجزيرة الفراتية (ميزوبوتاميا) وسورية ولبنان وفلسطين

وجزءاً على الأقل من جنوب آسيا الصغرى وغرب ايران وتركمانستان (توينبي ١٩٨١ : ٥٦).

كانت هذه الأقوام في شمال العراق وما حوله بؤرة الأويكومين الزراعي الذي ساهمت فيه شعوب متجاورة وهيأت بمنجزاتها الزراعية الاجواء لظهور حضارات أو ثقافات عديدة وصلت آخرها الى سومر.

أما المعجزة اليونانية فلم يكن بالإمكان تحققها لولا ظهور من حضارات بشرية بعد سومر كالحضارات المصرية والبابلية والآشورية والعيلامية والفارسية والهندية والصينية والكريتية والحورية والحيثية والكنعانية والفينيقية والآرامية والحضارات اليمنية وغيرها . . حتى أنفجرت لحظة يونانية أعطت شيئاً جديداً أو صياغة جديدة للمنجزات التي سبقتها وأضافت لها روحاً نوعياً.

أما المعجزة الغربية التي بدأت تتبلور بدايتها في عصر النهضة الأوربي فقد قامت على هضم منجزات الحضارات الشرقية التي استمرت كالهندية والصينية والفارسية وعلى ما ورثته الحضارة الرومانية من اليونانية، وعلى هذبه وصقله الدين المسيحي للأقوام الأوربية الأولى البربرية، وقبل كل هذا على المنجز النوعي والكبير للحضارة العربية الاسلامية التي كانت جسراً عظيماً بين المعجزتين اليونانية والغربية.

إن وجهة النظر الحيادية التي أقدمها هنا لمشهد المنجزات البشرية تأخذ بنظر الاعتبار المنجزات المادية والروحية بشكل خلاق ومبدع ولا تتكئ على منجز روحي أو ديني لوحده أو على منجز مادي لوحده، بل تأخذ الثقافي والمادي والروحي والعقلي والعلمي والديني في جهاز أو نسق (SYSTEM) حضاري يعمل بانسجام وتناغم وايقاع وتساوق في كل قطاعاته، وتبدو نبضاته الحضارية وكأنها تحصيل حاصل كل هذا الانسجام والإتساق في قطاعاته.

كان الشعب السومري شعب الكتابة والمدن والمعايير والشرائع والطب والديمقراطية (مجلس النواب ومجلس الشيوخ، مثل مجالس الآلهة)، ورغم أن بيئة كانت قاسية مدمرة يعج بها المناخ الحار والجاف والتربة التي تتصاعد فيها الملوحة بسرعة، والأرض الخالية من المعادن والأشجار والأحجار، لكن (يد الله عليها) كما يقول صموئيل نوح كريمر.

كان الإنسان هو العامل الحاسم، كانت عبقريته في صبره ودأبه على تفحص هذا

شكل (١)
الراية السومرية
(راية أور)
راية الحرب والسلام
في زمن أور الثالثة

الكون بثبات وبصيرة ودون يأس، حتى فتح له باب التاريخ فدخل كأول شعب مكلل بالغار إلى حلبة التاريخ المضاءة التي كانت تراقبها الآلهة وتطلق على هذا الشعب (ذوي الرؤوس السود) لا لأنه الوحيد الذي كان شعر رؤوس افراده أسود، بل لأن السواد هنا كان يعني التميز والخصوبة والعبقرية، مثل الأرض التي كانت يعيش عليها (أرض السواد).

كان الشعب السومري، اكثر من غيره، اختلافا عن ما حوله من شعوب كانت، رغم دأبها تعيش منهج الاستهلاك والاسترخاء بعيون مغمضة أمام الكون . . ولذلك بعد أن فجرت الأيدي الأرض وبنت بهندسة خلاّقة نظّام الري، تفجر العقل وتوقد وتوتر الروح الإنساني واضاء ظلام الأرض وأحرّاشها.

إن من ينظر إلى خارطة سومر والمدن السومرية الأولى التي تمتد من جنوب غربي بغداد حيث (سبار) إلى أقصى جنوب الناصرية حيث (أريدو) ويرى بدقة كيف أن حدود الفرات (القديمة والجديدة) من خاصرة غرب بغداد حتى منطقة الفهود، وحدود دجلة من مروره ببغداد حتى الكوت (كوثا) حيث يمتد منها نهر الغراف باتجاه المدن السومرية (أوما) و(لكش) وباتجاه الفهود أيضاً تاركاً (أي الغرّاف) إلى الشرق منه، بينه وبين دجلة، أهوراً كبرى تتصل بالخليج العربي.

إن هذه الحدود المائية التي تشبه الشكل المعّين الضيق تحصُر بينها سهلاً رسوبياً خصيباً يحتاج إلى تنظيمٍ إروائي لكي يعطي كل ثماره .

من هذا الشق المعّين، الذي يبدو وكأنه فرج الأرض أورحمها، ولدت أول حضارة بشرية وظهرت على جوانب هذا المكان وداخله المدن السومرية المتلاحقة التي حيّرت الآثاريين في كنوزها المادية وفي ما تركته من كنوزٍ معرفية مكتوبة على ألواح الطين.

كانت روح المغامرة التي سيطرت على هذا الشعب هائلة، فأنكبَّ السومريون على الأرض التي بين أيديهم وحولوها من أرض غفلٍ إلى جنة عدن . . وبقيت هذه الجنة في أذهان مدوني التوراة على أنها الجنة السماويةَ .

أول شرارات الخلق هي السيطرة على الماء واكتشاف الري، لم يكن هناك مطرٌ فاخترعوا الري . . ولم يكن هناك خشبٌ فاستعلموا البردي والقصب . . ولم يكن هناك

معادن فصنعوا من الطين المحروق القدور الأواني والجرار والطابوق . . وألواح الكتابة .

قالب الآجر، دولاب الفخار، عجلة العربة، المحراث، السفينة الشراعية، القوس، صب النحاس والبرونز، والبرشمة والطلاء بالنحاس واللحام، ونحت الحجر والنقش بالحفر والترصيع والرسم وكتابة الشعر والغناء وترتيل الملاحم . . . كل هذه كانت مشاغلهم اليومية .

شكل (٢)

نموذج برونزي لعربة سومرية

تعود إلى ٢٦٠٠ ق.م عثر عليها في تل أحرب

لم يكن شعباً خرافياً، ولم يخلط الواقع بالخوف لينتج الخرافة، كان واقعياً متزن العقل وئيداً بصيراً ينطق بالحكمة البسيطة (المدينة التي لا يكون لها كلاب يحرسها الثعلب)، (ليس القلب هو الذي يقود الى العداوة ، وإنما هوا للسان)، (تدخل الذبابة في الفم المفتوح)، (اذا بنيت بيتاً كزعيم تعيش كعبد، وإذا بنيت كعبد تعيش كزعيم)، (بيد مع يد يبنى البيت، بمعدة مع معدة ، يأتي خرابه)، .

لم يوهم هذا الشعب نفسه أو أفراده بالخلود . . جسدُ الانسان غير خالد ولا خلود الاّ بالعمل والذكر الطيب . . ليست الآلهة كائنات بل قوى خلف ستار المرئي (كريمر : ب.ت).

شعبٌ تقول كل ألواحه بالطموح والنجاح والشرف، كانت قيمه الاخلاقية مثل القوانين والأعراف يلتزم بها الجميع بصمت وهدوء وكان أغلب كهنته وملوكه مثلاً أعلى لهذه القيم . . إن من يقرأ سيرة الملك الامير (گوديا) حاكم لگش يذهل من تقواه وعدالته وحبة للبناء (گوديا معناها النبي) فهل كان نبياً بالفعل ؟ .

كان (گوديا) يحب الحمار لأنه يعمل وهو صامت دون كلل وكان يتشبه به . . وكان أوركاجينا أول مصلح اجتماعي كبير في هذه الأرض .

كانت الاخلاق جزءً من العبادة أو فلنقل جزءً من شروط وجودالانسان على الأرض حيّاً ومتوازناً .

كانت أرضه أهوراً موحشةً تطفو عليها مستوطنات متفرقة ويائسةٌ تمتلأ بالأحراش . . لكنّ عرق السومريين هو الذي ارتفع بها للنجوم بنى السومريون ما يقرب من ستة عشر مدينة كبيرة في السهل الرسوبي الجنوبي للعراق، سوّروها فيما بعد، وفي وسط كل مدينة بنوا معبداً ذا مصطبة عالية . . تطورت إلى برج مدرج ضخم اسمه الزقورة . . وكان هذاً أهم اسهام في العمارة الدينية التي تلتها الاهرامات ثم الكنائس ثم المساجد ثم الملوية (زقورة المسلمين الفريدة).

والمدارس . . التي يختلف المؤرخون على قدمها وكثرتها في الحضارات المختلفة لأنها مؤشر تمدن أساسي ظهرت أول ما ظهرت في أوروك السومرية حوالي ٣٠٠٠ ق.م، ونفاجأ أن «عدد الكتبة الذين كانوا يمارسون مهنة الكتابة كان يبلغ الألوف، وأن أولئك

الكتبة على أصناف ودرجات منهم الكتبة الصغار المبتدؤن، والكتبة المتقدمون، والكتبة الملكيون، وكتبة المعابد، وكتبة من ذوي التخصص العالي في بعض نواحِ خاصة بالشؤون الإدارية. وكتبة أصبحوا من كبار موظفي الحكومة. وفي حقيقة الأمر هنّاك من الأسباب المعقولة ما يحمل المرء على الأعتقاد بأن عدداً من المدارس الكبيرة ذات الأهمية التي كانت تعد الكتبة، كانت مزدهرة في جميع أرجاء البلاد، (كرير ١٩٥٧ : ٤٤).

كان برلمانهم مكوناً من مجلس أعلى من الكبار (مجلس الشيوخ)، ومجلس عموم من الرجال هو (مجلس النوابّ)، وكان الحاكم (الانسي) يخضع لقراراتهم، وبظهور الحروب اصبح وجود الملك بدلاً عن (الانسي) ضرورياً وكان الملك ينتخب، لكنه فيما بعد أصبح يرث الملكية . . ومع ذلك ففي كل رأس سنة يرتجف قلب الملك هلعاً من عدم رضا الآلهة والكهنة والشعب عن أعماله . . وقد لا تتجدد ملوكيته بل يخلع ويوضع غيره .

شكل (٣)

حلي سومرية من الذهب عثر عليها في اور

كان المجتمع السومري مكوناً من المزارعين وأصحاب الماشية والملاحين وصيادي الأسماك والتجار والكتّاب والأطباء والمهندسين والبنائين والنجارين والحدادين والصاغة والفخارين ورجال الدين والمغنين وأصحاب الحانات وصانعي الخمور . . فكيف تسنى لمجتمع في الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد أن يتنوع بهذه الطريقة؟

لقد ظهرت كلمة (حرية) لأول مرة في تاريخ البشرية عند السومريين وتحديداً مع اصلاحات أوركاجينا وكان اسمها (أمارجي) التي تعني العودة إلى الأم أو الرحم . . فما أحلى هذا الفهم الشعري للحرية . . على أنها في الواقع وعلى الأرض أشد صلابة من تسميتها ، فالشرائع والقوانين منذ أوكاجينا ومروراً بأورنّمو وبيلا لاما ولبت عشتار بذرة الشرائع البابلية واليونانية والرومانية ، وأول ما يتبادر إلى الذهن لدى درسها وتمحيصها إنها تختلف كلياً عن شريعة الثأر، شريعة - العين بالعين والسن بالسن - التي سنها حمورابي واقتبسها عنه العبرانيون . ففي قوانين اورنّمو نزعة أنسانية غايتها الأصلاح لا الانتقام . لذلك حلت فيها الغرامة النقدية محل العقوبات الجسدية» (حتي ب.ت :٩٨).

شكل (٤)
تمثال نصفي لملكة او اميرة سومرية

وكانت بداية علم الفلك مع (إنانا)التي وصفت بأنها نجمة العشاء والصباح (الزهرة) ومع (نانا) إله القمر ومع (أوتو) إله الشمس . . ثم جاءتنا الألواح من سومر لتصف لنا اكثر من (٢٥) نجمة . . وكان الآلهة يسكنون الكواكب والنجوم وتسمى على اسمائهم . . وربط (گوديا) الأحلام بالنجوم . أما الزمن فانقسم عندهم إلى أيام وأسابيع وأشهر قمرية وسنوات عادية وكبيسة . . وكان (السار) دورة فلكية كبرى تتغير معها المصائر ، وكان الزمن يقاس بساعة مائية (كليبسدرا) وهي على هيئة إسطوانة أو منشور، وربما كانت ساعة الظل أوساعة العصا (المزولة)، ساعة شعبية يعرفها الرعاة .

اخترعوا النظام الرياضي الستيني الذي كان يتضمن النظام العشري، وبعد أن ساد الأخير في الحساب والجبر أصبح النظام الستيني وما زال أساس الهندسة والمثلثات والدوائر . . ثم أساس علم الفلك .

أول دساتير الصيدلة (الاقرباذين) ، أول الأطباء، أطباء النفس والعيون والفم، والجراحون والممرضون والأطباء البيطرون، والنحاتون، ومصممو الأزياء . . التنورات ذات الأهداب، ملابس الرجال ، ملابس الملوك والمحاربين، التيجان، الشالات التي تغطي كتفاً وتترك الآخر عارياً (ما يذكر بملابس اليونان والرومان)، أغطية الرؤوس الخرزية، آلات الموسيقى الايقاعية والوترية والهوائية . . وقد لا يصدق إذا قلنا السلم الموسيقي السومري (ألواح النوتات) .

كانت الأختام المسطحة والاسطوانية مثل برقيات الحضارة إلى الأمم المجاورة والبعيدة، وكانت في سومر مثل البريد السريع التنقل والذي يحمل الفن والكتابة والرموز وغيرها . . بعضها تحول إلى وثائق عامة وخاصة بل وتعاويذ حامية من الأشرار .

كانت مصانعهم تستعمل النحاس والبرونز والأخشاب والسكاكين والمناشير والأسلحة والقدور والمسامير والدبابيس والحلقات والمرايا والجلود وإطارات العجلات والمقاليع والأحذية والصنادل، استعملوا مسحوق الذهب لزخرفة بعض المصنوعات واستعملوا الذهب لأغلى تماثيلهم رفعةً، صنعوا السلال وكانت آلاف الأطنان منها تنسج سنوياً في أور فقط، وكانت احتفالات جزّ الصوف تبدو مثل ورشة عمل للبدء بالغزل والنسيج وصناعة الملابس، الأنوال العمودية والأفقية والقصارون الذين يزيلون الالوان بمحاليل قلوية وملابس الكتان .

العربات ذات العجلتين والسفن الكبيرة والمراكب والمشاحيف والقفف والسفن الشراعية. أما الري ونظام القنوات والحواجز والسدود والخزانات فلم يكن لها نظير، وكان هناك ما يرافقها من آلات التسوية وقضبان المقاييس والرسم وإعداد الخرائط.

شكل (٥)
كبش أمام شجرة مزهرة (من الذهب واللازورد) من أور

وضعت تقاويم المزارع في كتيبات طينية اسمها (في الأزمان القديمة أرشد فلاح إبنه)، وكانت أنواع المحاريث والمباذر وأدوات الحصاد والسقي تتكاثر.

وضعوا مقاييس الطول (اصبح، ذراع، قصبة، حبل، فرسخ).

وضعوا مقاييس المساحة (سار، ايكو، بور، بستان، حقل).

وضعو مقاييس المكيال (كن، سلا، كور، كورلوكال)

وضعوا مقاييس الوزن (قمحة، شيقل، من، تلنت) .

أما النقود فخاتمٌ فضي بوزن قياسي معين هو دينارهم وهناك ما هو أعلى منه أو أقل منه وزناً.

وضعوا شعراً في الغزل سيبقى، بعد آلاف السنين، من أعظم ما أنتجه الروح الانساني، ووضعوا شعراً مذهلاً من المراثي والمدائح والصلوات والتراتيل والأمثال والحكم . . وصنعوا أساطيراً هي بذرة كل أساطير العالم . . أما ملاحمهم التي ضاع أغلبها فقد بقي منها ما يدل على عصر البطولة الإنساني بأكمله .

هذا الشعب الذي شغل التاريخ لأكثر من (١٥٠٠) سنة وقدّم نواميس الحضارة لمن حوله ومعه من الشعوب، طعنته شعوب معه وحوله كانت تتطلع إلى منجزاته بذهول وعجز، وتكررت الطعنات حتى سقط في بداية الألف الثاني قبل الميلاد وبدأ صوته بالخفوت، كان اسمه (شعب أحراش القصب - كي . إن، جي - كينجي) ثم اسموه الساميون (سومر).

هذا الشعب طوى اسمه النسيان منذ ذلك الوقت ولما يقرب من أربعة آلاف سنة . . لكن رهبان المعرفة من الحفارين والآثاريين بعد منتصف القرن التاسع عشر جلوا عن ذهبه الصدأ والغبار وهالهم ما رأوه :

لقد رأوا شعباً من ذوي الرؤوس السود المليئة بالحكمة والمعرفة يسد ثغرة مطلع التاريخ، وهو يعمل بمعاوله، ويرمي بالواح كتابته إلى أطراف الأرض . . وبذلك فسر لنا ذلك كيف جرى التاريخ وكيف تكون في أدق وأحرج مراحله .

شكل (٦)
رأس الثور الذهبي الذي يزين القيثارة السومرية

لم يكن اكتشافهم لهذا الشعب مقصوداً بل كان صدفةً ، حيث ظهرت لغة غريبة على الآثاريين ليست بابلية أو آشورية أو آرامية أو فارسيّةً، ولا علاقة لها باللغات القديمة أو الجديدة.

ويوم توصل (أوپرت) عام ١٨٦٩ إلى أكتشافه الخطير بأن هذه اللغة هي لغة قوم هم (السومريين) وأنها تشير إلى الحضارة التي أسست مفتتح التاريخ وعلى أساسها قامت حضارات وادي الرافدين . . صرخ بوجهه اليهودي (جوزيف هاليفي) مرعوباً بأن لا شعب غير الشعب السامي قد بنى حضارات العراق، وأن اللغة السومرية هذه كانت مجرد اختراع مصطنع قام به الساميون أنفسهم لأغراض سرّية وكهنوتية .

ولكن سبيل الاكتشافات الذي بدأ من گرسو (تلّو) ثم نفّر ثم بقية المدن السومرية كان مهولاً . . وكان مدعاة للتفكير بجدية بوجود حضارة سومرية كبرى تأسس بها التاريخ.

كانت سومر قد اختفت من التاريخ منذ حوالي (٢٠٠٠ ق . م) وتوارى اسمها مثل مدنها تحت تراب وأبنية الغزاة والساميين ومن بعدهم . . حتى أن اسمهم (سومر) لم يذكر مطلقاً في التاريخ، وساد اسم بابل على جنوب العراق، وحتى كتبة التوراة تلاعبوا عن قصد أو ذوت ذاكرة جيلهم فسموا أرض سومر بسهل (شنعار).

وما كادت أربعة آلاف من سنوات النسيان تكتمل حتى عاد هذا الإسم برّاقاً قوياً وكشفت خارطة شعبه وخطوط مؤثراته، ثم عُرف بعده بشيء من الدهشة، أن كل ما أتت به الحضارات كان فيه خيط من سومر.

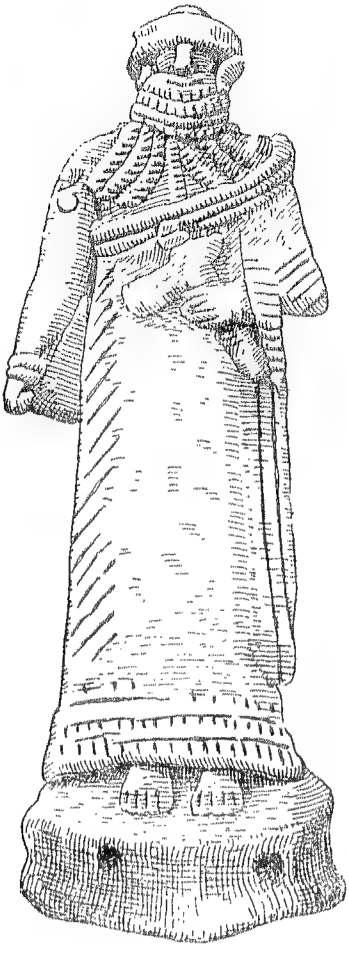

شكل (٧)

محارب سومري

شكل (٨)

مناظر أسطورية وجدت مرسومة على آلة موسيقية من أور الثالثة توضّح طرب ورقص الحيوانات

القسم الثاني

التاريخ السومري

لا تستوي معرفتنا بالتراث السومري أو بأي مظهر من مظاهر الحضارة السومرية دون معرفة دقيقة بالتاريخ السومري، هذا التاريخ الذي ما زال قابلاً لإعادة النظر فيه والذي ما زال يثير جدلاً عريضاً بين المؤرخين.

لقد اعتاد المؤرخون الغربيون والعرب على تقسيم التاريخ السومري إلى مرحلتين هما القديمة قبل مجيء الاكديين والحديثة وهي مرحلة سلالة اور الثالثة .

ولكنّنا وجدنا أن هذا التقسيم لا يعطي للقارئ صورة دقيقة عن تاريخ سومر، ولذلك اتبعنا منهجاً جديداً في تقسيم التاريخ السومري إلى خمس مراحل على أساس التطور الحضاري ثم السياسي للشعب السومري وحضارته وهذه المراحل هي :

١ . مرحلة الأصول : وتبدأ من زمن غير معروف على وجه الدقّة ولكنّها تنتهي إلى ٣٥٠٠ ق . م وسنناقش فيها نظريات أصل السو مريين .

٢ . مرحلة الظهور (٣٥٠٠ - ٣٠٠٠) ق . م حيث بناء نواميس الحضارة السومرية وبدء الإشعاع الحضاري لسومر .

٣ . مرحلة دول مدن السومرية (فجر السلالات السومرية) (٣٠٠٠-٢٤٠٠) ق . م حيث ظهور النظام السياسي ممثلاً بدول المدن السومرية وكثافة انتشار المنجزات الحضارية السومرية إلى الاصقاع القريبة والبعيدة، وتنتهي هذه المرحلة بمحاولة لوگال زاگيزي تكوين دولة سومرية واحدة .

٤ . مرحلة الدولة السومرية (مرحلة لوگال زاگيزي) (٢٤٠٠ - ٢٣٧١ق . م). التي استمرت في حدود ربع قرن أو أكثر بقليل (٢٩ سنة) ثم قضى عليها سرجون الاكدي وكوّن الدولة ثم الامبراطورية الأكدية وأتى بعده الغزاة الگوتيون لوادي الرافدين .

٥ . مرحلة الامبراطورية السومرية (سلالة أور الثالثة) (٢١١٢ - ٢٠٠٤) ق . م التي استمرت أكثر من قرن بقليل ثم سقطت على يد العيلاميين والاموريين .

١ . مرحلة الأصول (؟ - ٣٥٠٠) ق.م

لا أحد يعرف من هم الأجداد القدامى للسومريين، ولا أحد يعرف على وجه الدقة أصل السومريين، رغم أنه لا أحد يعرف أيضاً أصل الكثير من الأقوام المزامنة للسومريين أو التي ظهرت قبلها بقرون أو بآلاف السنوات، الاّ أنه بسبب الأهمية الحضارية للسومريين وحصول انعطاف التاريخ على يدهم من مراحل ما قبل التاريخ إلى العصور التاريخية . . ولاسباب اخرى معروفة وضعت نظريات عديدة نرى أنه من الضروري المرور على أغلبها، ولو بعجالة ، للتعرف على وجهات نظر العلماء في هذا المجال .

هنالك ما يقرب من العشر نظريات أو أفتراضات تبحث في أصل السومريين وهي مرتبة حسب الجهات التي تشير لأصل السومريين ابتداءً من الشمال إلى الشرق فالجنوب والغرب (ما عدا النظرية الأخيرة المحلية أو العراقية) (انظر المخطط ١) .

١- الأصل الأناضولي (آسيا الصغرى) :

إعتماداً على نوع اللغة السومرية الملصقة والمتكونة من مقاطع غير قابلة للتصريف مثل اللغات الآرية أو السامية، ولها جذور لا تتغير ووحدتها القواعدية الأساسية هي

المركب اللفظي وليس الكلمة المفردة، وقد قام بعض الباحثين بمقارنتها بالكثير من اللغات الملصقة الأخرى مثل التركية والهنغارية وبعض اللغات القوقاسية وخصوصاً اللغة الطورانية القديمة، حيث قام رولنسن في وقت مبكر باثارة مثل هذا الرأي ثم تبعه أوبرت

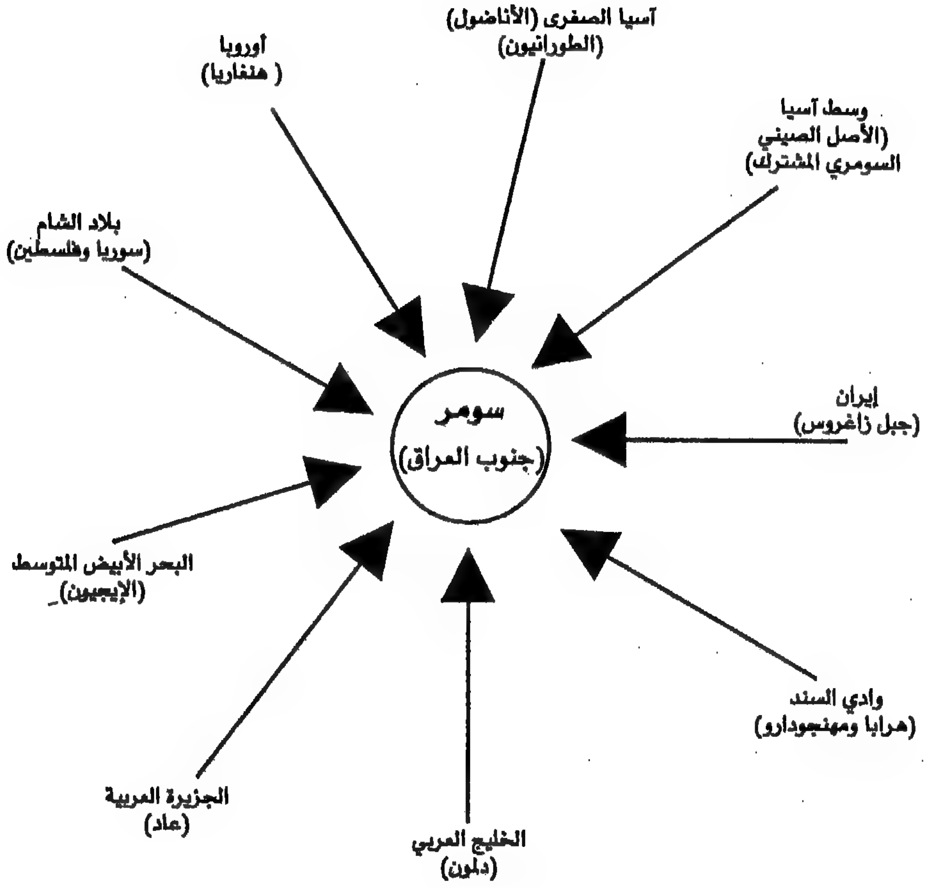

مخطط (١)

نظريات أصل السومريين من خارج وادي الرافدين

وكان أمر اكتشاف اللغة السومرية ما زال في بدايته ، وقد تحدث صموليل نوح كريمر عن احتمال كون اللغة السومرية تنتمي إلى نمط الطورانية ، الا أن طه باقر الذي لمح إلى ذلك أيضاً في مقدمته حسم هذا الموضوع برأي علمي عندما قال « ومع أن اسلوب الإلصاق مستعمل في جملة لغات بشرية ملصقة قديمة وحديثة مثل اللغة العيلامية ولغات عائلة (الاورال - الطاي) كالمغولية والتركية والمجرية ولغات أخرى مثل البولينيزية والباسكية وبعض اللغات القوقاسية مثل الجورجية. بيد أنه يمكن القول أن اللغة السومرية لا تمت بصلة قربى إلى أيٍّ من هذه اللغات الملصقة ، ولعل أقرب فرضية لتعليل تفرد اللغة السومرية أنها من عائلة لغوية أنقرضت في أزمان بعيدة عن عصور ما قبل التاريخ ولم يبق منها سوى اللغة السومرية التي تكلم بها السومريون في حضارة وادي الرافدين ، وكانت أقدم اللغات المدونة في هذه الحضارة (باقر ١٩٧٣ : ٦٠).

٢. الأصل الوسط آسيوي (الاصل الصيني السومري المشترك) :

يرى بعض الباحثين أن السومريين قدموا من هضاب ومرتفعات أواسط آسيا ، وانهم سلكوا طريقاً باتجاه ايران جنوباً حتى استقروا في جنوب العراق. ودليلهم على المسلك الايراني هذا تشابه فخار العبيد الملون في العراق وايران (وهذا بالطبع لا يدل علي ما ذهبوا اليه بل يدل على انتشار فخار العبيد باتجاه ايران).

وقد ذهب الباحثان (بالي ولت) إلى مذهب أبعد فقد استدلا من خلال بحثهما الدقيق في الكتابتين المسمارية الصينية والسومرية في كتابهما (الصينيون والسومريون) إلى أن هناك تشابهاً صارخاً بين المراحل الصورية الأولى من الكتابة الصورية المسماوية (التي اخترعها السومريون) والمراحل الأولى من الكتابة الصينية القديمة (الكو . ون) ووضعا معجماً صينياً سومرياً مقارناً للكثير من الكلمات المشتركة في معانيها وأصواتها ، واستنتجوا أن اسلاف الصينين والسومريين جاءوا من اصول جبلية في وسط آسيا منحدرين باتجاهين ، أحدهما ذهب إلى الصين والآخر اخترق ايران واستقر في جنوب العراق. وكان كل منهما يحتفظ باصول الكتابة المشتركة البدائية لأسلافهما مع تصويتاتها المشتركة (انظر Bali, Litt 1913: introduction).

٣ . الاصل الايراني وجبال زاغروس :

لاحظ بعض الباحثين أن السومريين يستعملون في كتابتهم ولغتهم رمزاً واحداً لمدلولين هما الجبل والوطن (البلد) . . وهو كور (Kur) . ورأو أن في ذلك ما يدل على أنهم يعنون بأن وطنهم هو الجبل، ووضعوا احتمالاً لأقرب الجبال المحاذية لجنوب وادي الرافدين وهي جبال زاغروس ، وقد عزز هذا الرأي أن السومريين لم يبنوا معابدهم على أرض مستوية مثل البيوت والقصور بل على أرض مرتفعة ووضعوا مصطبات بنيت عليها هذه المعابد، ثم بنوا المعابد على شكل زقوات تشبه في شكلها الجبال العالية، وجعلهم هذا يربطون بين المعبد كمكان مقدس وبين الوطن كمكان قمدس قدموا منه وأن هذا المكان هو الجبال الايرانية شرق سومر .

وازداد تعزيز هذا الرأي ما وجد في الأختام السومرية الاسطوانية من رسوم الأشجار وحيوانات جبلية مثل (السرو والارز والوعل والماعز الجبليين من ذوي القرون الطويلة) .

ثم ازداد هذا الرأي رسوخاً مع اكتشاف التشابه بين فخار العبيد في سومر مع فخار سوسة، ولكن ظهور فخار أريدو السابق عليهما والذي شكل مصدرهما خفف من هذه الحجّة، ثم أن الزقورات كانت تنفيذاً لتصوير مثولوجي لاهوتي عن جبل الكون الاول الذي ظهرت الآلهة على قمته حسب اللاهوت السومري، وانه لا يمكن الاعتماد على مفردة أو مفردتين للدلالة على أصل شعب له عشرات الآلاف من المفردات في لغته وكتابته .

٤. الأصل السندي (هارابّا ومهنجو دارو) :

بعد أن اعطت الاكتشافات المثيرة في حوض نهر السند (مناطق هرابّا Harappa وموهنجودارو Mohenjo - Daro) صورةً جديدة لاصول الحضارات القديمة في الهند، وجد بعض العلماء أن هناك تشابهاً كبيراً بين الآثار السومرية والهندية الثقافية والمادية والأختام التي تعود إلى حوالي (٣٠٠٠ –٢٧٠٠ ق.م) ومما زاد في ذلك العثور على مدن سومرية مثل (أور، كيش وتل أسمر) على أختام تحمل صفات الأختام المعروفة في وادي السند من حيث الشكل والاسلوب وصور المنحوتات المحفورة عليها كالثور ذي السنام فوق الرقبة والفيل والكركون والتمساح (أنظر علي ١٩٨٩ : ٢٧).

والنظرية التي تقول بوجود علاقة عرقية حقيقية بين السومريين وبين أقوام هارابّا ذات جاذبية خاصة لاولئك الذين يحاولون أن يجدوا صلة لغوية بين اللغة السومرية واللغة الدرافيدية، وهناك دلائل قوية على شكل طرز فنية واشياء مادية خاصة بحضارة وجدت في المواقع الاخرى ولعلاقات تجارية في الألف الثالث بين السومريين وأقوام وادي الهند أو بلوخستان (انظر ساكز ١٩٧٩ : ٥٣).

٥ . الأصل الخليجي (دلمون)

من اساطير الكاهن البابلي اليوناني (برعوشا) ومن قائمة ملوك ومدن ما قبل الطوفان هناك ما يشير إلى أن الرجل السمكة أوانيس Oannes الذي خرج من الخليج وجلب معه مقومات الحضارة. وهذا يتفق مع الأفكار السومرية حول إله الحكمة إنكي (إيا) والذي شكل الإله المحلي لمدينة اريدو وهي أقدم مرئية كانت تقع على ضفاف الخليج العربي ثم استوطنت المدن الاربعة الاخرى بنزوحٍ من البحر من الجنوب الشرقي فصاعداً حتى الخليج العربي (انظر ساكز ١٩٧٩ : ٥٢).

أما النظرية التي تحمّس لها جيوفري بيبي على أساس أن ما عثر عليه في دلمون (البحرين) من آثار سومرية ومن آلاف القبور تشير بوضوح إلى أن دلمون كانت الموطن الذي نزح منه السومريون عبر الخليج العربي مروراً بجزيرة فيلكا ثم إلى جنوب وادي الرافدين، ويعتمد في ذلك أيضاً على أن السومريين كانوا يذكرون دلمون في أساطيرهم على أنها الجنّة الخالدة وعلى أن الخالدين من البشر يسكنون فيها (زيوسدرا أو أوتونابشتم في ملحمة كلكامش) وأنها تذكر بالعصر الذهبي الذي عاشوا فيه (انظر بيبي ١٩٨٥).

ويتوسع مناصرو هذه النظرية أكثر من ذلك عندما يقررون أن حضارة ما جان (مكان) في عُمان وحضارة التاروت في الجزيرة العربية وحضارات أم النار والباربار في دول الامارات وقطر تشكل الخلفية الخليجية لحضارة دلمون وأن هذه الحضارات مجتمعة كانت أصل السومريين وموطنهم الأول قبل أن يظهروا في وادي الرافدين.

٦ . الأصل الجزيري (عاد)

تعتبر نظرية الأصل الجزيري التي جاء بها الدكتور بهاء الدين الوردي **(الوردي ١٩٨٣)** من أكثر النظريات إثارة ودهشة، ففي كتابه (حول رموز القرآن الكريم) يذهب الوردي إلى

أن قوم عاد هم السومريون، وقد سعى بإجتهاد واضح لاثبات ذلك ولكيفية نزوحهم من الجزيرة العربية معتمداً على تحليل اللغة والكتابة السومرية، وقد اعتبر الوردي (الذي تأثر إلى حد كبير بالمستشرق رينو أستاذه) أن (عاد) هم موجة سامية كاملة خرجت من الجزيرة العربية قبل الألف الرابع قبل الميلاد وتفرقت في الشمال العربي كله، ففي العراق صار العاديون سومريين، وفي الشام صاروا الحيثين وفي مصر صاروا الفراعنة وهكذا، ولا تعتمد هذه النظرية على أدلة أثرية كافية بل تحاول من خلال احتمالات تاويلية للغة والكتابة بسومرية وربطها بالعربية الوصول إلى حل مشكلات كثيرة، ولذلكَ يبقى التخفظ عليها قائماً واساسياً (الماجدي ١٩٩٢أ : ٥٢) و (الماجدي ١٩٩٢ب).

٧ . الأصل المتوسطي (الايجيون) :

ضعفت كثيراً نظرية احتمال كون السومريين من أقوام البحر الأبيض المتوسط والتي اعتمدت بالدرجة الأساس على تحديد صنف الجماجم التى عثر عليها في المقابر السومرية من أنها تمثل جنس البحر المتوسط الناتئ الفك الغليظ العظام والكبير الأسنان نوعاً ما . (انظر كون ١٩٤٩ : ٩٣). وذهب البعض إلى أن أغلب مؤخرة الجماجم السومرية مستقيمة، وهو ما يمثله جنس البحر المتوسط بالإضافة إلى المؤثرات الثقافية المشتركة المبكرة لبعض الجزر الايجية .

ولكن هذه النظرية لا تصمد أمام حقائق بايولوجية أو آثارية اخرى، أهمها تزايد اكتشاف جماجم سومرية كثيرة مكورة المؤخرة وغيرها .

٨. الأصل الشامي (سوريا وفلسطين) :

يتخذ مناصرو هذه النظرية من فخار الوركاء السومري دليلاً على أن له ما يشبهه في شكله والوانه الحمراء والرمادية والتي عثر عليها في شمال سورية وفلسطين، فرسموا طريقاً منحدراً من تلك المناطق اختطه أجداد السومريين ثم استوطنوا منطقة سومر .

وتضعف هذه الحجة أمام الأصل العبيدي والوركائي للفخاريات الشامية وليس العكس .

٩ . الأصل الاوربي (الهنكاري) :

قام الدكتور بندنك من جامعة بوينس ايرس باصدار كتاب (الاعجوبة السومرية The sumerian wonder) عام ١٩٧٤ ، حاول أن يثبت من خلاله أن السومريين جاءوا من هنكاريا «وأغرب ما في هذا الكتاب قائمة تحتوي على عشرات من المفردات السومرية التي أوجد لها المؤلف بطريقة أو بأخرى، ما يوازيها في الهنغارية معناً ولفظاً، وقد خلص المؤلف في نهاية الأمر إلى رسم خريطة توضيحية لهجرة السومريين من الأراضي الهنغارية- الرومانية إلى بلاد الأناضول وصولاً إلى مناطق الفرات العليا ، ومن ثم النزول باتجاه جنوب وادي الرافدين نحو ما يعرف ببلاد سومر» (على ١٩٨٩ : ٢٧).

ويبدو تهافت هذه النظرية واضحاً حيث عكس الدكتور بندنك الأمر ، فبدلاً من الإشارة إلى انتشار الحضارة والكتابة واللغة السومرية إلى أصقاع بعيدة في اوربا ودخول مفردتها إلى اللغات الاوربية القديمة، عكس الأمر دون مراعاة البعد التاريخي للموضوع.

١٠ . الأصل العراقي (الرافديني المحلي) :

أرجأنا الحديث عن هذه النظرية إلى آخر هذا العرض، وذلك لنبين، أولاً ، أن الباحثين لم يتركوا جهة من جهات الأرض إلا وجعلوها أصلاً للسومريين، وثانياً ، لنبين أن كل نظرية من النظريات التسع السابقة إعتمدت على عامل واحد أو عاملين كأساس لها مثل اللغة أو الثقافة او البابولوجيا دون الأخذ بالاعتبار القضية السومرية باكملها، وكقضية شاملة متصلة بماضٍ قبلها ومستقبل بعدها .

ونحن نرى أن نظرية الأصل العراقي للسومريين تحلّ الكثير من المشكلات التي طرحتها النظريات الأخرى، رغم أن بعضها ما زال عالقاً.

السؤال الذي نطرحه أولاً هو: أي الاماكن او البلدان كان اكثر تطوراً من بلاد الرافدين في الأرض كلها قبل ظهور السومريين في جنوب وادي الرافدين حتى نقول بأن السومريين قدموا من خارجه وجلبوا معهم نواميس الحضارة ومنها الكتابة ؟

والجواب الحتمي هو لم يكن هناك اكثر تطوراً من وادي الرافدين على الاطلا ، لأن العراق ومنذ عصر الميزوليت ثم النيوليت ثم الكالكوليت كان يتطور بطريقة متصاعدة متسارعة ويجعل جميع الاماكن التي حوله تلهث وراء تطوره . . ولذلك جاء تطور

السومريين متمماً للتطورات التي سبقته. فقد تطور وادي الرافدين في التعدين والزراعة والري وإنشاء المدن والمعابر وظهور الحرف . . فما الذي يمنع أن تنمو هذه النواميس الحضارية وتتطور ويكون ذلك على أيدي اناس أُطلق عليهم بعد ذلك إسم : السومريين .

يقول المؤرخ (جورج رو) بأن الأدب السومري يقدّم لنا صورةً لشعب مُجد مثقف، وجد متدين، غير أنه لا يعطينا معلومات عن أصله. وتدور حوادث القصص والأساطير السومرية في وسط غني بالأنهار والبحيرات وبالبردي والنحيل - وهذه خلفية نموذجية لمنطقة جنوب العراق - وتعطي انطباعاً قوياً بأن السومريين قد عاشوا دائماً في ربوع هذه المنطقة. وليس هناك ما يؤكد وجود أي موطن سالف للسومريين يختلف عن وادي الرافدين، ، (رو ١٩٨٤ : ١٢١).

بعد الثورة النيوليتية الهائلة في شمال وادي الرفدين وعلى سفوح جباله وظهور القرى والعبادات المنتظمة وسبل التحضر، وصلت كانت هذه الثورة إلى ذروتها في حضارة أو ثقافة سامراء في الألف الخامس قبل الميلاد. وقد هذه الحضارة تعتمد في اقتصادها على الزراعة . . والزراعة بدورها تعتمد على الأمطار المتذبذبة السقوط. ولم يكن هناك سبيل امام السامرائيين إلاّ الاعتماد على الأنهار وتنظيم ريها . . وكان لا بد أن يرافق ذلك انحدارهم إلى الجنوب مع مسيرة دجلة فبدأو بالنزوح تدريجياً.

كان الإسم القديم لمنطقة سامراء في الألف الأول قبل الميلاد (سرمراته) وذكر أيضاً (سيمراوم) و (سيمراء) . . اما الرأي الذي يقول أنه في العصر العباسي اشتق من عبارة (سُرّ من رأى) فهو خرافة ولا شك. ويدل على أن هذه المنطقة وما حولها كان لها علاقة باسم (سومر) بدليل ذكر (سور سومر) عند احد المورخين الرومان ووجود منطقة (سومار) إلى الشرق من سامراء بإتجاه ايران .

إن هذا كله يشير إلى أن سامراء النيوليتينة كانت الموطن الاصلي للسومريين وقد حاول الدكتور فوزي رشيد اثبات ذلك في أكثر من مناسبة .

ولا نستبعد مطلقاً أن انتشار السامرائيين النيوليثين كانوا في الأرض المحصورة بين (سامراء) على دجلة و(حديثة) على الفرات. وأن انحدارهما ، كلٌ على نهره، بدأ في منتصف الألف الخامس قبل الميلاد مع بدء الثورة الكالكويتية واستخدام المعادن. وقد تكون جبال حمرين مصدراً اساسياً في هذه الهجرة .

ويبدو مع الزمن، في حدود الألف الخامس قبل الميلاد ، ظهر في المناطق التي حول نهر دجلة في اراضي جنوب وادي الرافدين الخصبة اقوام اطلق عليهم اسم (الدجلويون الاوائل) وهم ابناء حضارة سامراء. أمّا الذين تتبعوا نهر الفرات في اراضي جنوب وادي الرافدين الخصيبة فاطلق عليهم اسم (الفراتيون الأوائل) . وكان لكل من هؤلاء لغة تختلفُ إلى حد ما عن الأخرى وباندامجهما في مدن السهل الرسوبي ظهر ما نسميهم بـ (العبيدون) الذين يمكن أن نطلق عليهم السومريون الأوائل حيث شكلوا الأجداد المباشرين للسومريين . ويمكن تتبع ما أسلفناه في (المخطط رقم (٢))

وبذلك نرى أن القسم الجنوبي من وادي الرافدين كانت تسكنه ثلاثة أنواع من الأقوام المتجانسة (بين الألف السادس والخامس) ق.م. وهي :

١ – الدجلويون الأوائل (proto - Tigridians) وهم الأقوام الذين سكنوا حول النصف الجنوبي من نهر دجلة واستقروا في النصف الأعلى من السهل الرسوبي، وقد بحث الباحثون في ما تبقى من اسمائهم لغتهم فوجدوا ان هناك اسماء بعض الآلهة مثل «داگان وزابابا ورب الشمس أمبا AMBA وعشتار وأداد ، وبأن المنطقة قد سكنت من قبل العناصر المتكلمة باللغات السامية باقوام تختلف عن الفراتين الاوائل، اطلقوا عليهم اسم سكان دجلة الأوائل » (الأحمد ١٩٧٨ : ٢٣١).

٢ . الفراتيون الأوائل Proto - Euphratic : وهم النازحون الشماليون الذين اسسوا مدنهم على نهر الفرات وشكلوا اغلب سكان النصف السفلي من جنوب العراق. وقد قام لاندز بيركر بدراسة بعض مفرداتهم التي شملت أسماء مدن معروفة وأسماء حرف وصناعات ضرورية وأساسية للمجتمع الزراعي السومري فيما بعد . وقد أطلق هو هذه التسمية على هؤلاء الأقوام، وشخص ما يقرب من (٣٥) مفردة لهم، ثم أضاف لها (غلب) (٢٣) مفردة أخرى.

٣ . العبيديون : وهم في رأينا الخليط الحضاري من الدجلويين والفراتيين الأوائل وجميع الفلاحين والحرفيين الذين نزحوا من شمال وادي الرافدين واستوطنوا سهله الجنوبي الرسوبي وابدعوا في مجالات زراعة الري وصناعة الفخار الخاص بهم واستعمال المعادن وبناء المدن. ونرى أن من أوائل المناطق التي ظهر فيها العبيدون كاصحاب حضارة جديدة هي منطقة أريدو ثم تل العبيد ثم الوركاء . . الخ . وكان زمن ظهورهم ينحصر بين

(٤٠٠٠ - ٣٥٠٠) ق.م. وهم في رأينا (السومريون الأوائل) أو أجداد السومريين القريبون. وقد نشر العبيدون ثقافتهم وحضارتهم إلى شمال العراق والاناضول وسوريا والمتوسط وبلاد عيلام والجزيرة العربية والخليج وكانت إنجازات نوعية هامة على جميع المستويات، وهكذا فعل مثلهم أسلافهم السومريون الذين أكملوا نشر الحضارة الرافدينية وكل ما في الأمر، أن بدء ظهور الكتابة جاء بعد أفول العبيديين بقليل. ومع بزوغ السومريين، (بسبب الكتابة)، أدار هؤلاء القوم التاريخ من مراحل ما قبل التاريخ إلى أول المراحل التاريخية وهنا تكمن أهميتهم وفرادتهم.

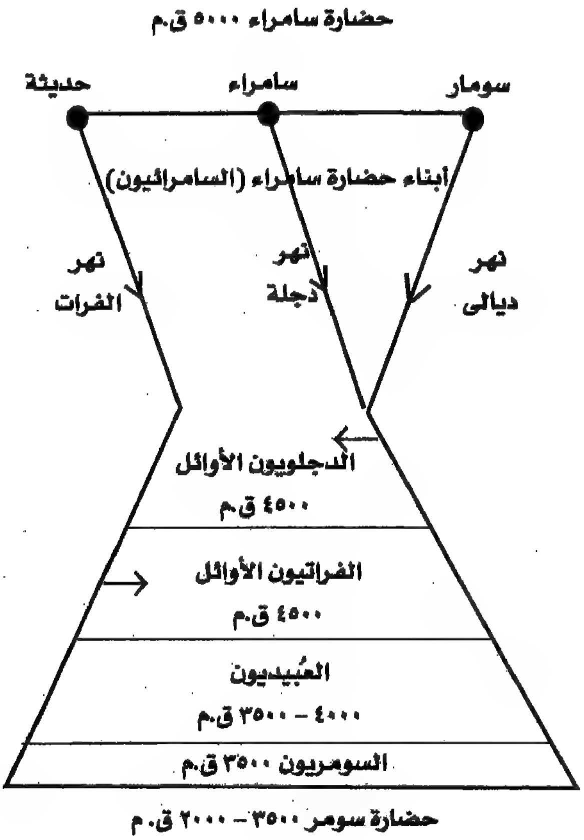

مخطط (٢)

مخطط مقترح للأصل الرافديني الشمالي (العراقي) ولكيفية تشكّل أجداد السومريين في الجنوب الرافديني

٢ . مرحلة الظهور (٣٥٠٠ - ٣٠٠٠) ق.م

مع ظهور ثقافة أو حضارة اوروك (الوركاء) (والتي تقع على بعد ٣٠ كم جنوب شرقي السماوة) بدأ ظهور السومريين يتضح في العراق ، ومع هذا العصر بدأت الحضارة في جنوب العراق تنعطف نوعياً خصوصاً وأن حضارة العبيد كانت قد انحلت تماماً ، فقد بدأ الفخار بأنواعه الثلاثة (الأحمر والرمادي والعادي) بالظهور أولاً كدلالة على تغيير مزاج وذوق الناس الذين يستعملون هذه الأدوات الفخارية في حياتهم . وبدأت معابد المصطبات بالظهور والإنتشار . وفي حدود ٣٢٠٠ ق . م ظهرت أول أشكال الكتابة التصويرية في معابد أوروك وسميت مرحلة الكتابة هذه بالمرحل الصورية(pictographic) حيث أصبح بالإمكان التعبير عن كلمة بعلامة واحدة ، فمثلاً العلامة :

(GU) (گو)

تمثل صورة رأس الثور وتعني كلمة ثور (انظر رشيد١٩٧٢ : ٢٠) .

وكانت الحياة الإجتماعية والإقتصادية تشير إلى تبدلات نوعية كبيرة . وانتشر فن النحت ، ونقشت الألواح من الحجر ، وصنعت الأختام الإسطوانية وكان فن العمارة راقياً جداً فقد زينت واجهات المعابد بنقوش مصنوعة . . منها معبد (آن) في اوروك ، ومعبد العقير . او زينت بالفسيفساء المتكون من مسامير ملونة من الفخار أو الحجر .

وبعد ثقافة أوروك السومريةالأولي بدأت ثقافةجمدت نصر السومرية الثانيةالتي تصاعدت فيهاالانجازات السومرية ، وتقدمت فنون الحضارة السومرية وتأسست أغلب نواميسها ، ويذكر أنه قدعثر فيها على مسلة صيد الاسود والاءناءالنذري ورأس القناة الرخامي وتمثال إمرأة عارية ومجموعة من الأختام المسطحة والإسطوانية والأسلحة والفسيفساء وتطورت الصناعات المعدنية كثيراً .

أما الكتابة فقد انتقلت من طورها الصوري الى الطور الرمزي (Ideographic)حيث أصبح يمكن التعبير عن الاشياء والأفكار المتعلقة بها أو التي يمكن أن توحي بها ، فصورا المحراث يمكن أن تعبر عن الفلاح ايضاً ، وصورة الفم ومعه صورة الماء تعبير عن الفعل (شرب) فاذا كان معه قطعة خبز تعبر عن الفعل (أكل) . . وهكذا .

وتطورت الكتابة المسمارية بعد ذلك إلى الطور الصوتي (Phonetic) حيث أصبح

الاهتمام بالعلامات المسمارية، دون معانيها التي تعبر عنها الصورة في الأصل، لتكتب بواسطة الأصوات فمثلاً كلمة (السهم) ترسم بعلامة معينة تلفظ بـ (تي)، ولكن لفظ (تي) يعني في نفس الوقت كلمة (حياة).. لذلك أصبحت كلمة حياة وسهم تكتبان بنفس العلامة دون أن يكون بينهما علاقة.

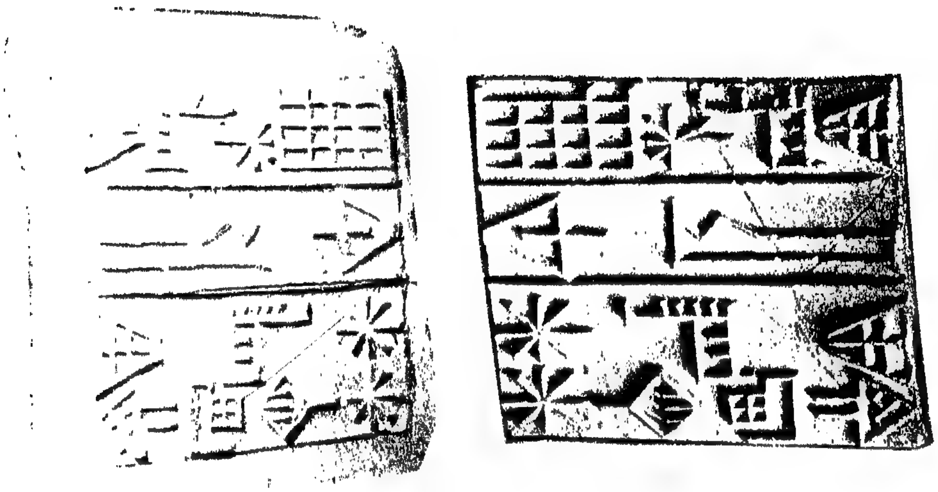

شكل (٩)
كتابة سومرية مسمارية

أما المرحلة الرابعة فهي المرحلة أو الكتابة المقطعية (Agglutinative) التي مهدت لها المرحلة السابقة، حيث أصبح الاعتماد كلياً على الألفاظ الصوتية دون المعاني. فبدأ دمج العلامات ليدل على كلمات مادية ومعنوية جديدة، واصبح مع هذه المرحلة كتابة الاسماء سهلاً، فمثلاً اذا كان اسم الشخص (كيتي ki- ti) فيتم رسم علامة ki التي تدل على المكان أو الأرض، ثم بعدها علامة Ti التي تدل على السهم أو الحياة دون أن يعني

بالضرورة معنى اسم الشخص (مكان أو أرض الحياة) مثلاً . . وهكذا ، وقد انتشر الخط المسماري في مرحلته الصورية في جميع بلاد سومر ، بل ويظن أنه قد أنتشر إلى خارج سومر بإتجاه الشرق نحو الصين ، ومن الشكل الصوري للكتابة المسمارية السومرية ظهرت الكتابة الصينية القديمة المسماة (كو ـ رون) (انظر Bali, litt, 1913) .

وكذلك نرى أنه من انتشار الحضارة السومرية والسومريين وكتابتهم في المرحلة الصورية غرباً بإتجاه البحر المتوسط ومصر نشأت الكتابة الهيروغليفية المصرية القديمة وانتشرت معها نواميس حضارية سومرية كثيرة (انظر waddell 1930) .

شكل (١٠)

الأعلى: مخلوقات خرافية سومرية الوسط والاسفل: قبضة السكين التي عثر عليها في تل الأراك في مصر (قبل ٣٠٠٠ ق.م) وهي تشير الى تأثيرات سومرية واضحة (المخلوقات الخرافية، الزوارق ، الحيوانات المتصارعة، الشخوص .. الخ).

وانتشر الخط المسماري السومري ومعه اللغة السومرية إلى منطقة (عيلام) جنوب ايران . . وبدت منطقة عيلام وكأنها امتدادٌ لأرض سومر، لا يفصل بينهما سوى مياه الأهوار (انظر Hinz 1972) . حيث ظهرت آواخر العصر الشبيه بالتاريخي حوالي ٣٠٠٠ ق . م الكتابة العيلامية الاولى (Proto - Elamit) وفي مثل هذه المرحلة بدأت الحضارة والكتابة السومرية بالانتشار بإتجاه الخليج العربي ووصلت إلى دلمون (البحرين) وقد عثر على آثار تشير إلى ذلك (بيبي ١٩٨٥).

أي أن الاشعاع السومري في فترة الظهور قبل بداية الألف الرابع قبل الميلاد إتجه أربع اتجاهات مهمة وأثر فيها ومهد لقيام حضارات فيها (انظر المخطط رقم (٣)) وسيساهم تقديرنا لهذا الامر، على ضوء الموجودات الآثارية بحل مشكلة الأصول التي ناقشناها في الفقرة السابقة حيث أن الأمر حصل معكوسا، وقد بدأ بهذا الانتشار في هذه الإتجاهات الأربعة .

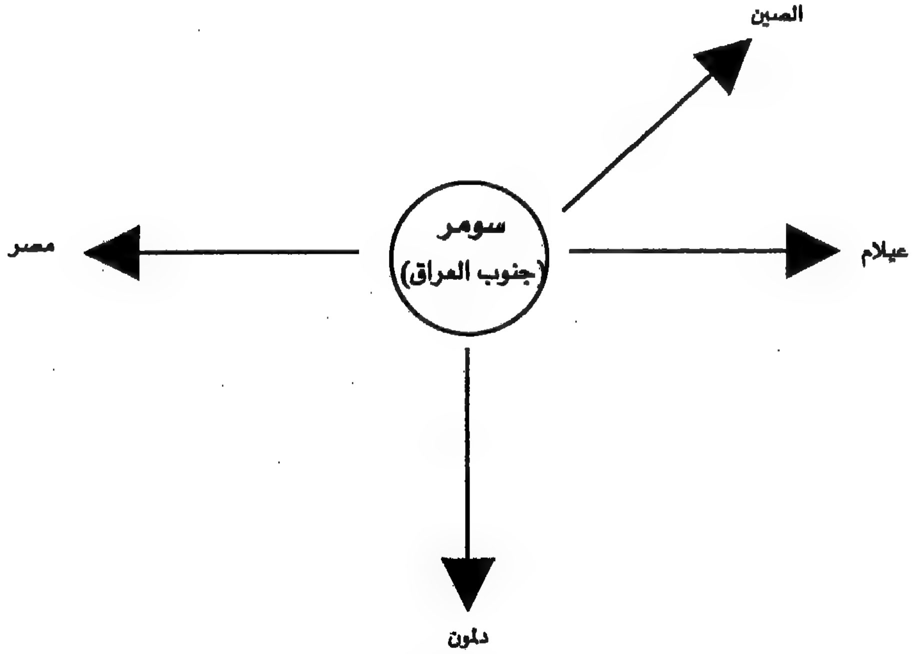

مخطط (٣)
يوضح انتشار الثقافة والكتابة السومرية خارج وادي الرافدين ما بين ٣٥٠٠ - ٣٠٠٠ ق.م

إن الانتشار الواسع والكبير للكتابة المسمارية حصل مع ظهور الاكديين واستعمالهم الكتابة المسمارية لتدوين لغتهم التي حملوها معهم مكتوبة بالمسماري الى اطراف الامبراطورية الاكدية ، وبذلك صار استعمال الخط المسماري عالمياً منذ ذلك الوقت .

شهدت مرحلة الظهور السومري تأسيس المدن السومرية الكبرى ، وظهرت في هذه المدن حكومات وأنظمة سياسية ودينية ومتطورة . وتخبرنا قائمة الملوك السومريين قبل الطوفان ، الذي يخمن الباحثون انه حدث في حدود (٣٠٠٠ ق . م) وربما قبل ذلك بكثير ، أن ثمانيه ملوك حكموا في فترة ما قبل الطوفان التي قد تقع ضمن فترة الظهور السومري ، حيث نزلت الملوكية من السماء الى المدينة السومرية (أريدو) التي كانت تسمى (نون كي) ثم توالى انتقال الملوكية إلى المدن السومرية الخمس حكم فيها ثمانية ملوك لمدة ربع مليون سنة (في مقاييس ذلك الوقت من السنين) ثم حدث الطوفان ، وهذه المدن وملوكها كما يلي :

١- اريدو :حكم فيها الولم، الكار .

٢- بادتبيرا : حكم فيها انمنلو انا، انمنكال انّا، دموزي الراعي .

٣- لاراك: حكم فيها انسيبازي .

٤- سبار : حكم فيها انميندر انّا.

٥- شروباك: حكم فيها اوبارتوتو .

وقد ارتبطت بهؤلاء والملوك أحداث وأفكار اسطورية ونسبت لبعضهم المعجزات والخوارق .

٣ مرحلة دول المدن السومرية (عصر السلالات السومرية)

٣٠٠٠ - ٢٣٥٠ ق.م

إذا اتبعنا ثبت الملوك السومريين بعد الطوفان ، وما أظهرته الحفريات الآثارية لهذه المرحله نستطيع أن نقدر أن التاريخ المعروف لبدءمرحلة دول المدن والسلالات السومرية تقريباً ٣٠٠٠ ق . م، ويحدد بعض العلماءبدء هذه المرحلة في ٢٨٠٠ ق. م أو ٢٩٠٠ ق . م (أنظر باقر ١٩٧٣ : ٢٥٢) أي أن هذه المرحلة استمرت ما بين خمسة أو أربعة قرون فهي تقترب من زمن المرحلة السابقة (مرحلة الظهور)، ولكنها تمتاز عنها سياسياً وحضارياً وثقافياً في تقدمها الهائل وانتشارها الكبير ، وكأن سومر تحولت في هذه المرحلة إلى مصباح مضيء أنار الأرضَ كلها بعلومه وفنونه وآدابه وأديانه ونواميسه الحضارية المتعددة التي انتشرت إلى المناطق المجاورة لها في كل الإتجهات ، ليس عن طريق الحروب أو الغزوات بل عن طريق التجارة والهجرات السلمية الحضارية . . حيث امتازت سومر، وهي بلد الحضارة الأولى ، أنها في نفس الوقت بلد السلام والأمن ، حيث لم تكن الحروب الجماعية معروفةً في عصرها إلاّ بعد أن فاجأتها أقوام أخرى غير متحضرة بلغة الحرب والموت، أما سومر فكانت أم نواميس الحضارة البشرية التي انطلقت من جنوب العراق إلى الدنيا بأسرها .

امتاز النظام السياسي السومري في هذه المرحلة بما يسمى بدولة المدينة(city state) حيث تحتفظ كل مدينة باستقلالها السياسي وبحاكمها ومعابدها وآلهتها ، رغم أن هذه المدن جميعها تسودها معتقدات دينية عامة وعلاقات سياسية واجتماعية وحضارية عامة . وقد ظهرت في هذه المرحلة حضارة المدن السومرية العظيمة التي كان لها الفضلُ في تصعيد المنجزات الحضارية السومرية بأكملها . وسنذكر أهم سلالات المدن السومرية وأهم حكامها :

١ . سلالات كيش الأربعة : الأولى عدد ملوكها (٢٣) ملك وآخر ملوكها (أكا) الذي حاربه كلكامش خامس ملوك اوروك ، والثانية عدد ملوكها (٨) ملوك منهم (داداسك) و(ماما كال) . والثالثة حكمتها ملكة واحدة هي (كوبابا) ، أما الرابعة فقد حكمها (٧) ملوك أولهم (بوزرسين) .

٢ . سلالات أوروك الثلاثة : الأولى عدد ملوكها (١٢) ملكاً ، وقد ظهر منهم ابطال سومر الذين ذكرتهم ملاحمها المعروفة وهم (أنمركار) و (لوگال بندا) و(گلگامش) . أما الثانية فعدد ملوكها (٣) ، أما الثالثة فقد حكمها ملك واحد قوي وطموح هو (لوگا زاگيري) الذي حاول أن ينشيء دولة سومرية موحدة لكل المدن السومرية ولكن سرجون الأكدي قضى عليه ، ونفذ مشروعه بل وأنشأ امبراطورية أكدية تعدت وادي الرافدين .

٣ . سلالتا أور : كانت المقبرة الملكية في أور تشير إلى سلالة ملكية مبكرة في أور ، ولكن أور حكمت في هذه المرحلة من قبل سلالتين الأولى حكم فيها (٥) ملوك أولهم مسانيبدا وآخرهم بالولو .

٤ . سلالة لگش : ظهرت في لگش سلالتان الأولى في هذه المرحلة وقد انصرفت للعمران والبناء وأهم ملوكها (أورنانشة) و (أنتمينا) والمصلح العظيم (أوركاجينا) الذي كان آخر ملوكها أما السلالة الثانية فستتحدث عنها بعد الغزو الگوتي لوادي الرافدين .

٥ . سلالة أومّا : حكم فيها (٦) ملوك أولهم أيابورز .

٦ . سلالة أكشاك : حكم فيها (٥) ملوك أولهم أونزي .

٧ . سلالة أوان : حكم فيها (٣) ملوك .

٨ . سلالة أدب : حكم فيها ملك واحد هو لوگال آني مندو .

٩ . سلالة ماري : حكم فيها (٦) ملوك منهم لوگال تارزي .

١٠ . سلالة حمازي : حكم فيها ملك واحد هو (هادانيش) أو (انيش) .

كانت هذه هي المدن السومرية الأساسية التي حكم فيها ملوك سومريون ، لكن هناك مدناً أخرى في سومر تحضى بنفس أهمية هذه المدن مثل نيبور (نفّر) وهي أكبر مدينة دينية سومرية وتكاد تكون العاصمة الدينية المقدسة لبلاد سومر كلها ، حيث عبد فيها أكبر آلهة سومر (أنليل) ، ومدينة أريدو على ساحل الخليج ، ومدينة سبار (أبو حبّة) التي عبد فيها إله الشمس اوتو ، ومدينة أشنونا (تل اسمر) ومدينة خفاجي (تل اجرب) ومدينة ايسن ، ومدينة نينا (سرغل) ومدن أخرى . كل هذه المدن لم يظهر فيها ملوك

وسلالات ملكية ولكنها كانت لا تقل أهمية عن مدن السلالات الحاكمة . وتمتاز هذه المرحلة حضارياً بابتكار نظام دولة المدنية السياسي بعد أن ظهرت المدن في وادي الرافدين منذ الألف الخامس قبل الميلاد ، وهو نظام يدل على التمدن والعمران الحضري وأول شكل من أشكال الحكم المتمدن في تاريخ العالم والذي ظلّ افضل حكم سياسي لعصور طويلة ، حيث ظلّت بلاد الشام مثلاً طيلة تاريخها القديم تحت ظل هذا النظام ولم تظهر دولة مركزية في الشام ، ولكن هذا لم يمنع ظهور حضارات متنوعة ومتجددة في المدن الشامية في سوريا ولبنان وفلسطين والاردن .

شكل (١١)
إناتم الأول ملك لكش (٢٥٥٠ ق.م)

وقد أقام الاغريق بعد اكثر من ٢٥٠٠ سنة على ظهور هذا النظام السومري نظاماً شبيهاً به كان الأساسي في حضارة الاغريق.

واننا نرى على العكس من ذلك (كما سنرى في سومر) ان تحطيم هذا النظام والاتجاه الى نظام الدولة المركزية الواحدة ثم الامبراطورية الشاسعة قد بدد الكثير من امكانية ظهور منجزات متنوعة جديدة، فقد قضت هذه المركزية على التنوع الذي كانت تزخر به دويلات المدن.

لقد انحسر النظام القبلي والعشائري في سومر تماماً وحلّ محلّه في المدينة السومرية النظام البرلماني حيث يقول كريمر «إن أول برلمان سياسي معروف في تاريخ الإنسان المدون قد التأمَ في جلسة خطيرة في حدود ٣٠٠٠ ق. م. وقد كان مثل برلماننا مؤلفاً من مجلسين: مجلس الأعيان أي مجلس الشيوخ، ومن مجلس العموم (النواب) المؤلف من المواطنين الذكور القادرين على حمل السلاح، وكان «برلمان حرب»، دعي للإنعقاد ليتخذ قراراً في أمر خطير يخص الحرب والسلم» (كريمر ١٩٥٧ : ٨١).

كانت دولة المدينة مكونة من العاصمة وهي المدينة المركزية التي تتبعها مدن صغيرة وقرى وأرياف وأراض زراعية، وكان جنوب وادي الرافدين يزدحم بهذه المدن ومرفقاتها عمراناً وعمارة وحياة نوعية متخصصة، وكان لمعظم المدن السومرية أسوار تحيط بها.

أما الحياة الدينية لهذه المدن ولمجمل سومر فسنتناولها بالتفصيل في الفصول القادمة، ولكننا نود القول أن الدين السومري كان أول نظام ديني عميق ابتدأت بد العصور التاريخية للإنسان، فقد كانت أديان ما قبل التاريخ تفتقر إلى الشبكة النظامية الدقيقة التكوين والموحدة الإيقاع في العقيدة والطقوس والمثولوجيا، وكان ظهور الدين السومري ثورة روحية عميقة في عصره لأنه كان نظاماً دينياً شاملاً، ثم أنه احتوى ضمناً أغلب بذور وجذور الأديان التي ظهرت بعده في المراحل التاريخية للإنسان.

وظهرت في سومر تقسيمات الأرض الزراعية التي كانت عملياً كلها ملك الإله، ولكنها مقسمة إلى ثلاثة أنواع الأولى تابعة للمعبد والثانية تابعة لعمال المعبد والثالثة تؤجر للفلاحين. أما المجتمع فقد ظهرت فيه انقسامات طبقية واضحة تقع الطبقة الحاكمة على

رأسها ومعهم الارستقراطيون والكهنة وشيوخ المدينة ، أما الطبقة الثانية فقد كانت من عامة الناس من (لأحرار) وهم الطبقية الوسطى كالفلاحين والصناع والأجراء، والطبقة الثالثة تتكون الأتباع الذين يعملون في أرض المعبد والصناعات المختلفة والذين يتبعون للأرستقراطية السومرية . والطبقة الرابعة هم العبيد الأرقاء التابعين للمعبد أو القصر وأغلبهم من العاجزين عن دفع ديونهم أوالأسرى أو المشتَرون .

ولا نريد ان نستطرد أكثر في مجال الانجازات الحضارية فنقول أن أول المدارس النظامية وفكرة المعلم والتلميذ والواح المدرسة ظهرت في هذه المرحلة ،وأن اول الشرائع والقوانين ظهرت . وان علوم الطب والكمياء والرياضيات والفلك ظهرت ، وان أول تصورات الإنسان عن الكون وفلسفة الخلق والوجود وأول الملاحم والاساطير المدونة وقصائد الحب وقصص البطولة قد دونت .

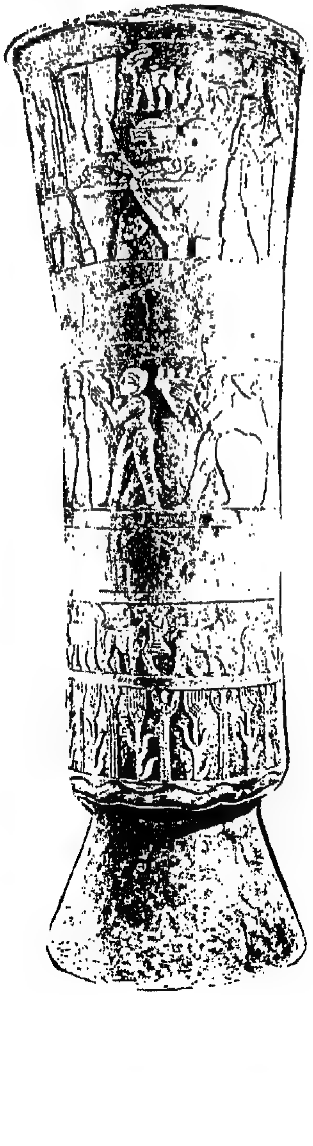

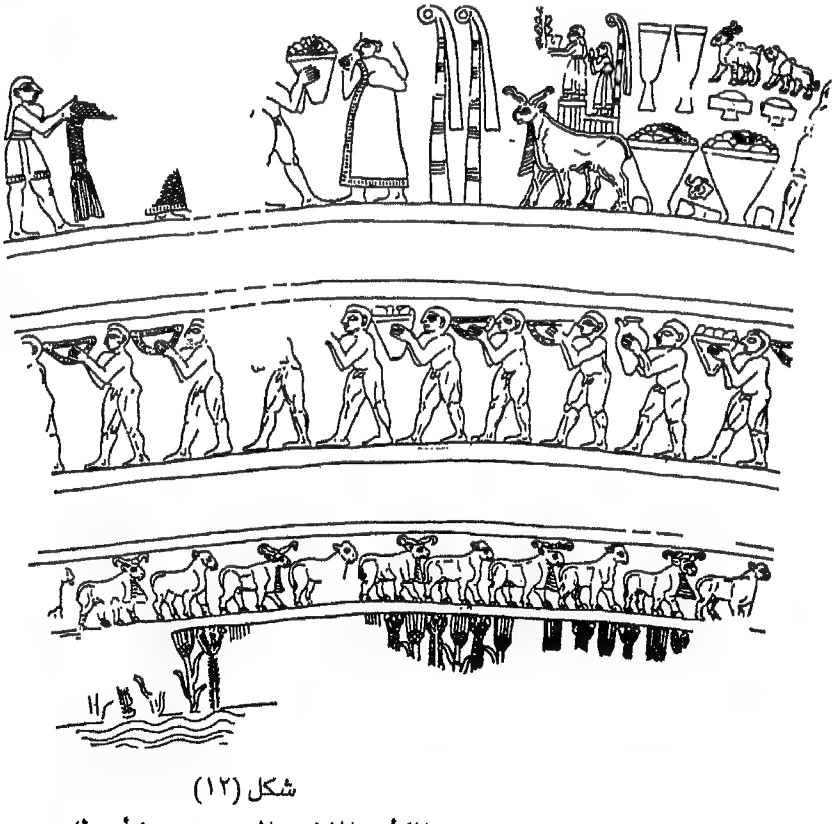

شكل (١٢)
الكأس النذري السومري من أوروك

وكـان لابد لهـذا الكنز الحضـاري السـومـري المدوّن ان ينتـشـر الى أصقـاع الأرض المحيطة به أولاً ثـم البـعـيـدة عنه . ويبـدو ان فكرة انتـشـار المنجـزات الحضـارية قـبل هذه المرحلة، وفي هذه المرحلة من خـلال الكتـابة وغيـرها هي التي أوحت لمختـرعي نظريات الاصول السومرية بالبحث عن أصل السومريين خارج أرض الرافدين . . لكن الحقيقة هي أن الأمـر مـعكوس تمامـاً فـإذاعكسنا رأس الأسـهـم في المخطط رقم (١) الذي هو عن نظريات أصـول السـومريين من خارج وادي النهرين فإننا سنحصل على المخطط الحقيقي لانتشار الثقافة السومرية إلى هذه «الأصول المزعومة ؟ » وإذا زودنا المخطط الجديد بالسنين والوثائق فستنكشف الحقيقة كاملة (انظر المخطط ٤) وسنرى أن ذلك الانتشار الحضاري السومري كان ضرورياً للسومريين أيضاً ، فالنمو العظيم للحضارة السومرية كان يحتاج من أمـاكن خـارج وادي الرافدين إلى أمور كـثيـرة ,, فالذهب من ميلوخـيا ووادي الهند واللازورد من برخشان Badkhshanوالاحجار الجيدة لصناعة الأواني من الجبال الايرانية في الشرق والفـضة من «جبل الفضة»، ربما طوروس والنحاس من ماجان Magan ومن ساحل البحر العربي . والاخشاب من سلسلة الجبال الشرقية . . وكـانت بلادسومر مرتبطة في ذلك الوقت بخطوط تجارية مع معظم العالم المعرف آنئذ، » (بوتيرو ١٩٨٦ : ٥٨) .

أمـا التأثير الاكبر الذي مـارسته الحضـارة السـومرية ففي وادي الرفدين نفسه وخصوصاً على الأقوام السامية التي بدأت تدخل العراق خلال الالفين الرابع والثالث قبل الميلاد والتي كـانت علاقتها ودية مع السومريين واعتبرت جزءً من سكان وادي الرافدين لا غريبة عليه . . حتى اذا ما استوعبت هذا التراث السومري وهضمته وكان عدد هذه الاقوام يتزايد قياسياً للسومريين، قفزت الى مرحلة الحكم السياسي للعراق القديم وهو ما فعله الاكديون (الساميون) كما سنرى .

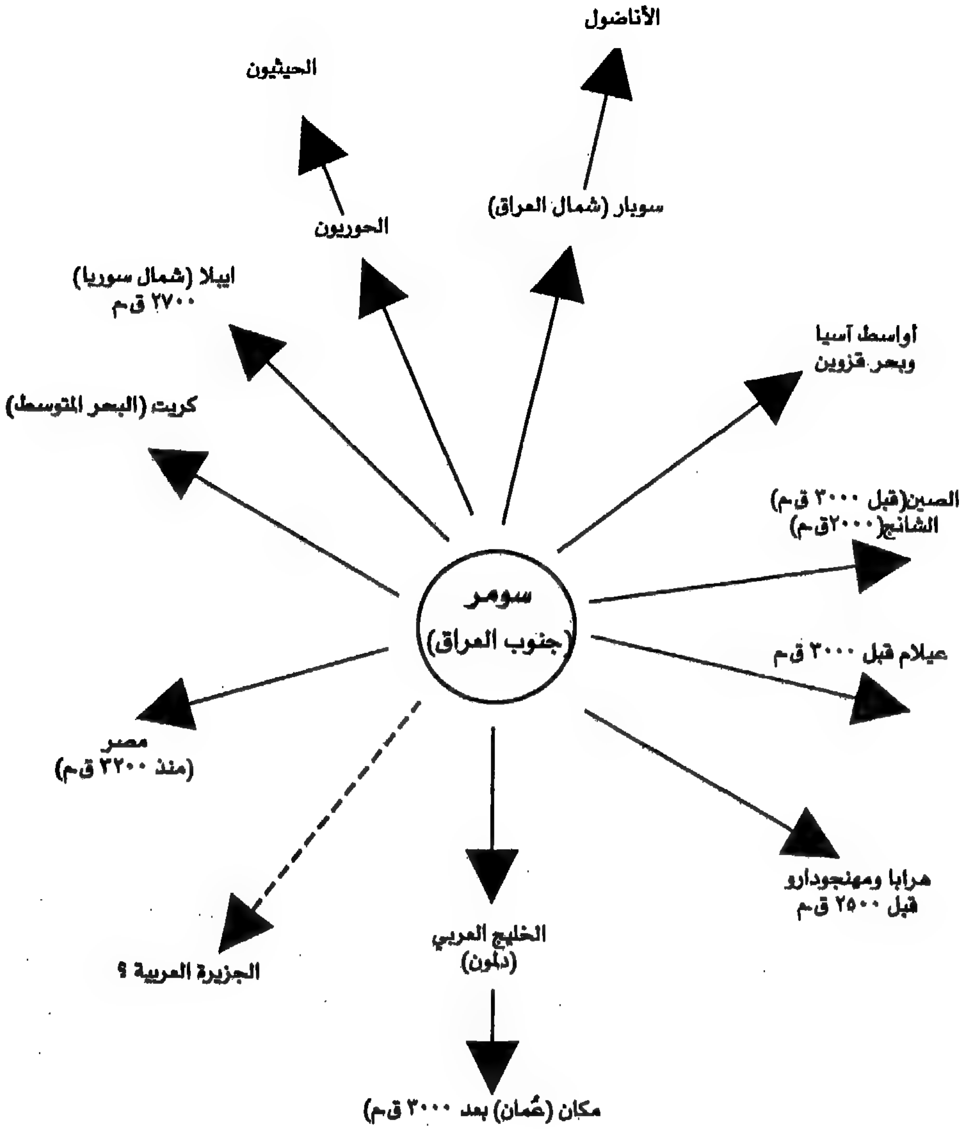

مخطط (٤)
انتشار الحضارة السومرية ومنجزاتها خارج وادي الرافدين
قبل وبعد ٣٠٠٠ ق.م. (مرحلة الظهور ودول المدن السومرية)

٤ . مرحلة الدولة السومرية (مرحلة لوكال زاكيري) (٢٤٠٠ - ٢٣٧١) ق.م.

كان عصر دول المدن السومرية عصر حضارة وبناء وسلام سياسي ، لكنّ الجزء الاخير منه شهد توتراً سياسياً بدأ بين سلالتين متنافستين فيّ لگش وأوما . بدأ اولاً بينهما حول مياه الري والأراضي الزراعية وتحديد الحدود، وختم بينهما بظهور ملك (أوّما) القوي لوگال زاگيري الذي قضي على سلالة لگش في زمن آخر ملوكها اوروكاجينا (الذي يقرأ اسمه الآن اورو أنيمكينا) وهو مصلح اجتماعي كبير ونحنُ نعتبره أول مشّرع في سومر، ولكن العنت السياسي للوگال راگيري جعله يندفع باتجاه المدن السومرية الأخرى فحكم أوروك ثم سقطت المدن السومرية بيده واحدة بعد الأخرى، حتى لقب نفسه (ملك سومر) وتأسست بذلك مملكة أو دولة سومرية واحدة هي الأولى من نوعها في التاريخ .

وإذا أردنا التوقف قليلاً عند هذا الحدث الخطير فإننا بروح الموضوعية نقول أن ظهور دولة سومرية واحدة كان مقدمةً لزوال سومر كلها . . لأن سومر ابتكرت نظاماً سياسياً عظيماً هو (دويلات المدن) وكان الحكم فيها يعتمد على اللامركزية السياسي وهو نوع من الكونفدرالية الذي كان يلائم حياة ذلك الوقت . . ولم يعق ذلك النظام ان يكون هناك كيان سومري وحضارة سومرية عظيمة، لكن استخدام القوة والسيطرة المركزية كانا من السوابق التي ستتكرر بطريقة سيشهد فيها التاريخ زوال سومر نفسها، فقد دام حكم دولة زاگيزي السومرية الموحدة بين (٢٥ -٢٩) سنة . . وهناك ما يقال عن زاگيزي هذا بأنه توسع في دولته وحولها الى امبراطورية تعدت حدود وادي الرافدين وشملت سوريا، وهذا ما نراه مدوناً في سنديانةٍ حجرية مكرسة لإنليل في نفر تدور حول فتوحات لوگال زاگيري :

« عندما وهبه إنليل ، ملك كل البلدان ذات السيادة، الملكية على الوطن (سومر) ، ووجه أنظار الأمة اليه ، وجعل كل البلدان تنتظره، وجعل كل فرد، من حيثما تشرق الشمس إلى حيثما تغرب الشمس، يستسلم له . بعد هذا، ضمّ اليه أقدام كل شخص من البحر الأسفل (الخليج العربي)، وعلى امتداد دجلة والفرات، وحتى البحر الاعلى (البحر الابيض المتوسط) ، لم

يُبق له انليل أي منافس من حيثما تشرق الشمس إلى حيثما تغرب، فخضعت له كل البلدان ذات السيادة لسيطرته (كالأبقار) في المراعى، وكانت الأمة تروي (حقولها) بحبور في ظل حكمه، وانحنى له كل حكام سومر التابعين وكل امراء البلدان المستقلة أمام مكتبة التحكيمي في أوروك،، (رو: ١٩٨٤: ١٩٨)».

ورغم وجود ما يشير الى ظهور المؤثرات السومرية الثقافية في هذه الأصقاع منذ المرحلة السابقة الاّ اننا لا نستطيع أن نجزم سياسياً بظهور امبراطورية سومرية في عصر لوكال زاكيزي، رغم أننا نستطيع أن نؤكد تماماً ظهور دولة أو مملكة سومرية موحدة في عصره شملت جنوب وشمال وادي الرفدين ودامت اكثر من ربع قرن بقليل .

ويبدو أن هذه الفترة من ظهور الدولة السومرية المترامية الاطراف أثارت شهوة رجل غير سومري الاصل كان يعيش في دولة سومر هذه، وهو من اصل سامي، كان يعمل (حامل كاس) أو نادل ملك كيش (أور - زبابا) السومري. فبدأ يخطط ليكّون توتاليتاريا سياسية عراقية كالتي فعلها لوكال زاكيزي واكثر، وقد كان مما يسانده تماماً زيادة العنصر السامي على حساب السومري والوجود الكثيف لهم في المدن السومرية ذلك الرجل هو (سرجون الأكدي) الذي أطاح بلوكال زاكيزي واسس الدولة ثم الامبراطويرة الاكدية (٢٧٣١ - ٢١٥٤) وعاصمتها اكد، أي أنها دامت بحدود قرن ونصف وتوسعت خلالها وشملت الاقطار المجاور فصارت أول امبراطورية في التاريخ، ولقد نوهنا ان هاجس التوسع والسيطرة الذي بدأ به زاكيزي أدى إلى هذه النتيجة التي نرى أنها حطمت التنوع وامكانيات نمو حضارات محلية مهمة وأنعشت هاجس التوسّع وفتح البلدان والقسوة عليها، وعلى شعوبها وربما تدميرها . . وهو ما سيتصف به تاريخ الشرق الادنى القديم بأكمله . . وما سترثه اليونان مع الاسكندر وروما . . الخ.

لقد كان انتقال السلطة من السومريين إلى الأكديين سلمياً بسبب العلاقة التاريخية التي تربط الشعبين وبسبب احتضان سومر لهما لقرون طويلة وتهذيب امكانيات التطاحن بينهما « ومن الامور الحضارية التي يجدر التنويه بها موضوع انتقال السلطة السياسية الى الاكديين الساميين انتفاء الصراع القومي الذي كان يفترضه الباحثون القدماء ما بين الساميين وبين السومريين على أن منشأه أسباب قومية . اذ الواقع من الامر ان الملوك

الاكديين إذا كانوا قد اتخذوا القسوة إزاء بعض المدن السومرية فإن سبب ذلك لأنها أعلنت الثورة وليس لأن أهلها من السومريين وأنهم ساروا على السياسة نفهسا تجاه بعض المدن الاكدية إذا أظهرت العصيان (باقر ١٨٧٣ : ٣٥٥) أما الثقافة السومرية فلم تتقوض أو تذوب خلال القرنين الاكديين بل اكتسبت عناصر جديدة منشطة من الاكدين مثلما منحت هي الارض الخام التي بنت الحضارة والثقافة الاكدية نفسها عليها . . وحتى على المستوى السياسي بقي بعض حكام المدن السومرية الذين من أصل سومري يحكمون مدنهم ، ولولا هذا الامر لما استطاع السومريون بعد ان اسقط الگوتيون الامبراطورية الاكدية طرد الگوتين واستعادة وادي الرافدين بأكمله .

حكم الدولة الاكدية عشرة ملوك اشتهر منهم الخمسة الأوائل، ثم استطاع الگوتيون وهم من اقوام جبال زاغروس المتاخمة لحدود العراق الشرقية مع ايران القضاء على الدولة الاكدية وورثوا أغلب مدنها خصوصاً الشمالية منها وحكموا (١٢٥) عاماً لم تقدم خلالها أيّ ثقافة أو حضارة للعراق بل خربت مدنه ودمرت بعض جوانب حضارته، أول ملوكهم (شارلگاب) وما لبث قليلاً في جنوب العراق حتى انسحبت إلى الشمال واتخذت مدينة (أرابخا) أي كركوك مركزاً لهم بحيث مهد مثل هذا الجو العودة لدول المدن السومرية للتطور والانتعاش، فظهرت سلالة حاكمة في الوركاء حكمها خمسة ملوك. وظهرت سلالة لگش الثانية التي بعثت الحياة في الروح السومري من جديد خصوصاً في عصر ملوكها (گوديا) . وقد حكم فيها (١٣) ملكاً سومرياً، ثم ظهر في اوروك مؤسس السلالة الخامسة لها وهو (اتو حيگال) الذي كان قوياً فقام بطرد الگويتين من وادي الرافدين كله واعاد السيادة السومرية على البلاد، ويبدو أنه قام بمحاولة تسوية من مدينتي لگش وأور التابعتين له، لكن حاكم مدينة أور واسمه (أورنّمو) انفصل عنه، ثمّ تغلب عليه واسس سلالة سومرية جديدة هي سلالة أور الثالثة التي قدر لها أن تعيد المجد السومري وتجعل في سومر إمبراطورية جديدة .

شكل (١٣)
كوديا أمير لكش

شكل (١٤)
أورنانشة أمير لكش

٥ . مرحلة الامبراطورية السومرية (سلالة اور الثالثة)
(٢١١٢ - ٢٠٠٤ ق.م)

دام حكم سلالة أور الثالثة زهاء القرن الواحد لم تكتف فيه بتوحيد المدن السومرية بل واستطاعت مدّ نفوذ سومر الى خارج وادي الرافدين مقلدّة ما فعلته الامبراطورية الاكدية، فقد شملت فتوحاتها أغلب الشرق الأدنى فبالاضافة إلى شمال الرافدين وصلت فتوحاتها الى عيلام وسوريا ووادي الخاور والبالخ والاجزاء الشرقية من آسيا الصغرى ومناطق الخليج العربي.

وحكم في سلالة أور الثالثة خمسة ملوك هم (اور - نّمو، شولكي، أمارسين، شوسين، أبي - سين) .

وخلال هذا القرن السومري الأخير أنجز السومريون أعظم انجازاتهم في جميع المحالات وثبتوا أركان حضارة كبيرة ستكون أساس ما بعدها، فقد انتعشت الثقافة السومرية القديمة بالمصل الاكدي الذي أضاف لها الكثير وبذلك نشأت ثقافة سومرية جديدة اصبحت أكثر قدرة على منح العالم القديم (الذي بدأ ينهض ويؤسس دوله وحضاراته) رؤية عالمية نشطة وقوية.

لقد كان الملك السومري أورنّمو (٢١١٣ - ٢٠٩٦ق.م.) هو أكثر ملوك سلالة أور شهرةً وعظمةً، فقد كان مهتماً بالبناء والعمران في كل سومر، وتعتبر زقوة أور التي بُنيت لإله القمر (نانا) من أشهر وأروع انجازاته العمرانية . كذلك يعتبر من أقدم المشرعين في التاريخ فقد وصلت شريعته المدونة باللغة السومرية، والتي تعكس إحساسه الإنساني بالعدل وسنّة لقوانين الغرامات المالية بدلاً من القصاص الجسدي (العين بالعين) وهو ما سنته لاحقاً شريعة حمورابي.

ويعتقد أن السبب العميق لسقوط الامبراطورية السومرية هو سبب اقتصادي، فقد أصبح من العسير على بلد بدأت الملوحة تصعد في أرضه الخصبة ويقل انتاجه الزراعي، ان يقوم بمدِّ الغذاء والحياة الهائنة لأصقاعه البعيدة. . وان يلتفت لادراتها بصورة صحيحة.

أما الأسباب السياسية والعسكرية فقد كانت مباشرة وعنيفة ف، قد كان من الواضح ان قلب سومر في جنوب العراق أصبح بين فكين شرسين الأول أتى من الشرق حيث هجم

العيلاميون على المدن السومرية وخربوها. والثاني أتى من الغرب حيث هجم الأموريون (وهم ساميون جدد) على سومر وأمسكو الحكم في مدنهم ثم استطاعوا طرد العلاميين من وادي الرافدين واصبحوا هم ملوك السلالات والممالك الجديدة ثم وحدت العراق احدى السلالات الآمورية وهي سلالة بابل الأولى.

شكل (١:٥)

الملك أورنّو امام الإلهة ننگال زوجه الإله القمر في أور، متحف فيلادلفيا

هكذا زال الكيان السياسي للسومريين الى الأبد، ولكن حضورهم الثقافي كان الأساس الذي بنيت عليه حضارات العراق القديم كلها، كما أن اللغة السومرية ظلت تستخدم كلغة دين وعلم لفترات لاحقة.

كانت الامبراطورية السومرية في أواخر حكم اباطرتها قد بدأت بالتفكك فقد انفصلت عنها عيلام، ثم انفصلت المدن السورية، أما مدن وادي الرافدين فقد تشكلت مثل رقع موزائيكية من الممالك الكبيرة والصغيرة، ففي جنوب وادي الرافدين ظهر صراع حاد بين مملكتي إيسن ولارسا لاحتلال مركز اور وحكم بلاد سومر واكد. اما في الشمال وادي الرفدين فقد ظهر صراع حاد بين مملكتي أشنونا وآشور للسيطرة علي الطرق التجارية الكبيرة وعاد العراق بالتدريج مفككاً الى دول مدن جديدة ساميّة هذه المرة حتى ظهرت سلالة بابل الاولى التي اعادت الوحدة له تحت حكم ساميّ قوي.

إن التاريخ السومري يظهر لنا متدرج التطور، فمن الأصول الزراعية البعيدة لفلاحي الشمال العراقي الى الظهور الواضح والزعامات والكهانات في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد الى ظهور دول المدن السومرية الى ظهور دولة سومرية واحدة إلى ظهور الامبراطورية السومرية، وهو تاريخ يستحق التأمل وإعادة الفحص دائماً بسبب من كونه أول تاريخ مكتوب في العالم لأول حضارة تدرجت سياسياً من حكومة المجلس إلى المدينة إلى الدولة إلى الامبراطورية.

الفصل الثاني

المثولوجيا السومرية

(دراسة في الأساطير والآلهة السومرية)

يتكون كلّ دين ظهر على وجه الأرض من مكونات رئيسية كبرى ومن مكونات ثانوية ملحقة بها ، والمكونات الأساسية لكلّ دين هي (المعتقد ، الأسطورة ، الطقس) . أما المكونات الثانوية فتتضمن (الأخلاق والشرائع) (انظر السواح ١٩٩٤ : ٤٧) .

ونري أن أهمية كل عنصر من هذه العناصر الأساسية أو الثانوية تتغير طبقاً إلى نوع الدين وطبيعته فالأديان البدائية تضع الطقس في أولوياتها ، والأديان الجوهرية (أديان الشرق الأقصى) تضع المعتقد ثم الطقس في أولوياتها ، والأديان الإلهية (أديان الشرق الأدنى وحوض المتوسط) تصنع الأسطورة في أولوياتها مصدراً للمعتقد والطقس (انظر الماجدي ١٩٩٦ : ٧٨) .

وتلعب الأساطير السومرية دوراً أساسياً في الدين السومري فهي منهل عقائده وطقوسه ولذلك آثرنا تفصيل الحديث عنها أولاً ، ثم أن هذه الأساطير بنظامها الكوزمولوجي واللاهوتي المحكم وشجرة آلهتها الوارفة كانت جوهر كل مثولوجيات الأديان التي جاءت بعدها .

سنحاول أن نجعل من هذا الفصل درساً روحياً وفكرياً لا سرداً اسطورياً تقليدياً ، لذلك سنرسم كوزمولوجيا اسطورية سومرية من خلال هذه المثولوجيا لتكون قاعدة أساسية لفهم الأساطيروحركة الآلهة ، كذلك سننظم (لأول مرة كما نعتقد) شجرة أنساب مفصلّة للآلهة السومرية ونتفصل في شرح البانثيون (مجمع الآلهة) السومري وننظر في تصنيفات الآلهة وتبويبهم ، وسيتم خلال ذلك سرد الأساطير السومرية بطريقة تلائم هذا التصنيف وتقع ضمنه .

المثولوجيا ، قبل كل شيء ، هي علم دراسة الأساطير ، والأسطورة هي حكاية مقدسة أو هي بتعريف أوسع ,, حكاية تقليدية ثابتة ومقدسة ومربوطة بنظام ديني معين ومتناقلة بين الأجيال ولا تشير إلى زمن محدّد ، بل إلى حقيقة أزلية من خلال حدث جرى ، وهي ذات موضوعات شمولية كبرى محورها الآلهة ، لا مؤلف لها بل هي نتاج خيال جمعي ، ، (الماجدي ١٩٩٧ : ٢٨) .

ويرى مرسيا الياد « أن الاسطورة تروي تاريخاً مقدساً ، تروي حدثاً جرى في الزمن البدئي ، الزمن الخيالي ، هو زمن (البدايات) ، بعبارة اخرى تحكي لنا الاسطورة كيف جاءت حقيقة ما إلى الوجود ، بفضل مآثر اجترحتها الكائنات العليا ، لا فرق بين ان تكون هذه الحقيقة كلية كالكون Cosmos مثلاً ، أو جزئية كأن تكون جزيرة أو نوعاً من نبات أو مسلكاً يسلكه الانسان أو مؤسسة ، إذن هي دائماً سردٌ لحكاية «خلق» : تحكي لنا كيف كان إنتاج شيء ، كيف بدأ وجوده ولا تتحدث الاسطورة الا عمّا قد حدث فعلاً ، عما قد ظهر في كلّ امتلائه . أما أشخاص الأساطير فـ«كائنات عليا» (الياد ١٩٩١ : ١٠) .

تصنيف الأساطير السومرية

رغم وفرة عدد لا بأس به من المصادر والكتب الاجنبية والعربية التي تتحدث عن الأساطير السومرية ، الا أن عدداً قليلاً منها يتخصص بها كلياً ، وأغلبها يقع في التعميم فيخلطها مع الأساطير البابلية والآشورية .

لقد وجدنا انه من الضروري ، بل ومن العملي بمكان ، فصل وعزل هذه الاساطير لوحدها والحديث عنها بالكثير من الدقة والتروي والعمق .

ما زال كتاب صموئيل نوح كريمر (الاساطير السومرية) هو المرجع الأساس في هذا الموضوع ، الا ان هذا الكتاب ، رغم اهميته ، صدر منذ زمن بعيد وظهرت بعده نصوص مسمارية كثيرة تعنى بالاسطورة السومرية ، ثم أن علم الاساطير (المثولوجيا) تطور تطوراً كبيراً ومنحنا آليات عمل وتحليل لم تكن واردة في زمن صدور ذلك الكتاب .

رغم ذلك نعود الى كريمر الذي قال قبل حوالي ثلاثين سنة «انه بات متوفراً لدينا الآن حوالي عشرين اسطورة وتسع وقصص ملحمية وما يزيد على مائة ترتيلة وصلاة

ونحو عشرين قصيوة غنائية وحوالي عشرين قصيدة اخرى من نوع المراثي - تزيد في مجموعها على عشرين الف بيت من الشعر السومري» (كريمر ١٩٨٦ : ٥٥) .

وبرغم الكثير من الطرق التي عرضت فيها الأساطير السومرية الآ اننا وضعنا تصنيفاً يتناسب مع ما هو متوفر منها ويأخذ بنظر الاعتبار الطريقة العلمية في تصنيف الاساطير وهي كما يلي :

١ . أساطير الخليقة (التكوين) Myth of Gensis

أ- الاساطير النشكونية (الكوزموغونيا Cosmogony)

ب - أساطير نشوء الآلهة (الثيوغونيا Thoegony)

ج- اساطير نشوء الإنسان (الانثربوغونيا Anthropogony) .

٢ . أساطير تنظيم الكون Myths of Organization

أ- الأساطير المرتبطة بالإله انليل

١ . أسطورة خلق الناس

٢ . رحلة (نانا) إلى نفّر

٣ . إيميش وانتين

٤ . لاهار وإشنان

ب- الأساطير المرتبطة بالإله إنكي

١ . إنكي وتنظيم سومر

٢ . إنكي واريدو والرحلة إلى نفر

٣ . أساطير تدمير الكون Myths of Destruction

أ- الطوفان (اسطور الدمار القادم من العالم الأعلى)

ب- التنين (اسطورة الدمار القادم من العالم الأسفل)

١ . التنين كور والآلهة (إنكي وننورتا وأنانا)

٢ . التنين أساج والاله ننورتا

٤ . **أساطير إنانا Myths of Inanna**

١ . إنانا والآلهة (آن ، انليل، انكي)

٢ . إنانا ودموزي

٣ . إنانا وملوك سومر (كلكامش، شولجي، شوسين، ايدن داجان، ايشمي داجان)

٤ . إنانا والانسان (شوكالتيودا ، بيلولو)

٥ . إنانا والعالم الآخر

أ. إنانا وجبل إيبيخ

ب . إنانا وكور

ج . هبوط إنانا إلى العالم الأسفل

تمتاز الأساطير السومرية بقدمها وعراقتها وأصالتها قياسياً إلى كل مثولوجيات الامم الأخرى، فقد كانت ولا شك في بدايتها قبل ٣٠٠٠ ق . م شفاهية وغير مدونة ، ثم بدأ السومريين تدوينها، ويرى كريمر أن أقدم الأساطير السومرية المدونة وصل الينا مكتوباً باللغة السومرية على إسطوانة من الطين مقسّمة إلى عشرين حقلاً وتعود إلى حدود ٢٤٠٠ ق . م وهي اسطورة تتعلق بالاله انليل والالهة ننخرساج (انظر Kramer 1963: 168)

ولم يكن الشاعر السومري الذي كتب الاساطير (أو القصائد الشعرية) عارفاً بالوزن والقافية (كما في العصر الأكدي ثم البابلي الآشوري) لذلك جاءت قصائد، وأساطيره أشبه ما نسميه اليوم بـ(قصيدة النثر) ولكنها كانت مشروطة بتقنيات تعوض عن الوزن والقافية وهذه التقنيات هي (التكرار والمقابلة والوصف والتشبيه) .

ويرى كريمر أن السومريين استخدموا التشبيه على نطاق واسع ويبدو أنه كان التقنية الشعرية الرئيسية ، وقد اعدت دراسة لأكثر من عشرين نموذجاً تمثل جميع الأجناس الادبية ورغم ظهور المقارنات التي كانوا يفضلونها والتي لم تكن بالخيالية ولا بالعميقة، الاّ أنها

تعكس درجة من رهافة الحس ذات صلة بالعالم الطبيعي والحيواني كصلتها بعالم الانسان ومصنوعاته (انظر كريمر ١٩٦٨ : ٦٥).

وتحفل الاساطير السومرية بمبدأ التشبيه الانساني (Athropormohpism)حيث تشبه الآلهة بالبشر تماماً في كل سلوكها وشكلها وولادتها واحياناً موتها (وهو نادر لأن الآلهة تتصف بالخلود) واحياناً لا نشعر مطلقاً أننا امام إله أو آلهة بل أمام إنسان عادي أو ملك أو حكيم .

ونختلف تماماً عن الاستاذ صموئيل نوح كريمر الذي يرى أن معظم الاساطير السومرية اساطير سببية Etiological Myths اي أنها تحاول أن تفسر الاحداث الكونية وتخلق لها قصصاً مناسبة ونرى أنها أساطير منوعة فيها التأمل والسببية وهي صدى لعصرها وللطبيعة التي نشأت فيها ، وفيها ما هو رمزي وفيها كيفية تنظيم الكون وتطوره وليس أسباب وجوده فقط .

ولم تكن الأساطير السومرية شعائر مقروءة في الممارسات الدينية، وليس هناك ما يشير الى أن هذه الأساطير كتبت لتمثل أو لتكون جزءاً من الدراما الطقوسية بل كانت أشبه بالنصوص المقدسة يرى فيها السومري إرثاً لما رأوه الاجداد وعرفوه عن بدايات الأشياء أو عن تاريخها المقدس كما يقول مرسيا الياد، ولذلك ايضاً لم تكن تعامل كنصوص أدبية فيها قوة وغنى التعبير. بل كنصوص حقيقية لا خيال ولا شطح فيها .

وأنه لمما يثير الانتباه حقاً ما لاحظه كريمر من أن الاساطير السومرية كانت على صلة بالمدارس ودور العلم السومرية (اي دبّا E- dubba) او بيوت الالواح اكثر من صلتها بالمعابد. وكانت مادة للتعليم والاستنساخ ولم تكن مادة للوعظ والكهانة فقط، فقد عثر في مدينة نفّر (وهي العاصمة الدينية المقدسة لسومر) على الأساطير والتراتيل والمرثيات في التل المعروف بـ(حي الكتاب Seribal quarter) ولم يعثر عليها في معابد نفر الشهيرة .

القسم الأول

أساطير الخليقة والنشوء (التكوين) السومرية

Myths of Gensis (creation)

لا شك أن جوهر الاسطورة وبؤرتها الحقيقية تكمن في أساطير الخليقة والنشوء، لأنها تشير إلى الأول دائماً (الكون والعالم الأول)، الآلهة الأولى، الانسان الأول. ولذلك تؤجج هذه الأساطير الشوق إلى معرفة الأصول، وهو شوقٌ أصيلٌ في الروح الإنساني ونزعةٌ من نزعاته القوية. ونجد في مثل هذه الأساطير ما يمسّ أعماقنا القصّية أو المستوى الضمني Emplicate Order الذي تحدث عنه (ديفيد بوم) سواء كان في الكون المحكي عنه في الاسطورة أو الكون العميق الذي في داخلنا كمتلقين للإسطورة.

سيطر البحث عن أصول اللغة والمجتمع والفن والأجناس والدين وغيرها على علماء الإنسانيات في القرن التاسع عشر، مثلما سيطر على علماء الطبيعة لمعرفة أصل الأرض والفلك، ولمعرفة أصل الكون والبايولوجيا ولمعرفة أصل الحياة (انظر الياد ١٩٩٤: ٢٧).

إن أساطير نشوء الكون وظهور سلسلة الآلهة من أقدمها واكبرها إلى أصغرها واحدثها أو كيفية خلق الإنسان.. لم تكن تسير وفق أقاصيص اعتباطية ورؤى وأخيلة كيفية، برغم أنه كان يخضع لتداول أجيال متعاقبة، إنها مشيدٌ ببنيةٍ محكمة خفية تحملُ

ابعاداً فيزيائية وبايولوجية صحيحة . . وهذا يدل على أن الإنسان لم يكن يرّمز قصدياً للظواهر والموجودات برموز الهية، بل لم يكن الشيء ينفصل عن رمزه مطلقاً «ويرجع هذا إلى إحساسه بوحدة الحياة وقدسيتها . . أما شعوره بوحدة الحياة فيرجع إلى تصوره أن حياته الزمنية تعكس تماماً نظام الكون، أو هي ونظام الكون شيء واحد يدور في فلك من الصراع بين القوى الإيجابية والقوى السلبية وقد ترتب على هذا شعوره بقدسية الحياة ابتداءً من أدنى مظاهرها إلى أعلى مظاهره» (ابراهيم ١٩٧٩ : ٧٧) .

وقد سبق لنا أن صنفنا أساطير التكوين الى ثلاثة أنواع، الأولى يخص الكون والطبيعة خلقاً، والثانية تخص الآلهة وكيف توالدت عن بعضها وسنمر بما نراه مناسباً من صفات وأساطير كل اله، والثالثة تخص الإنسان الذي تعددت طرق خلقه من قبل الآلهة السومرية كما سنرى .

أ. الأساطير التشكونية (نشوء الكون : الكوزموغونيا)
Cosmogony

لم يعثر إلى الآن على اسطورة كوزموغونية سومرية خاصة (مثل اسطورة الخليقة البابلية)، ولكن هذا لا يعني عدم وجودها، فربما ستجود بها أرض سومر ذات يوم، وكذلك لا يعني عدم وجود تصورات ميثوبية حول هذا الموضوع، فهناك العديد من مقدمات بعض القصص والأساطير والأغاني والأناشيد والتراتيل التي تعطينا تصوراً تشكونياً واضحاً عند السومريين ومنها قصة (كلكامش وانكيدو) ومقدمة اسطورة (الماشية والحنطة) وأسطورة (خلق الفأس) وبعض التراتيل والإشارات هنا وهناك .

تسمي الأساطير السومرية أول أيام الخليقة (أوريا Uria) ففي ذلك اليوم بدأ الانتقال من مرحلة العماء (Chaos) إلى مرحلة الكون (Cosmos) وقد تمّ ذلك من خلال الأنثى الكونية المائية الأولى نمّو Nammu وهي إلهةٌ هيولية تحركت فيها إرادة الخلق وتصارعت الحركة مع السكون ونتج عن ذلك تكون الكون (أن - كي) ويعني (السماء - الأرض) وهو جبل كوني يعوم وسط مياه نمّو، وبذلك تكوّن ايضاً (المكان الأول) .

إن نمّو كانت غمراً من المياه وهي أم الوجود كله، البحر الذي لا حدّ لقدمه والذي

يشتمل على كل الانظمة والحكمة والالوهية الصافية، أنه الجامع للغمر وللآلهة . ويذكّر هذا بفاتحة التكوين العبري- وكان الله يرّف على وجه الغمر - ولذلك تعتبر نمّو هي أم جميع الاشياء والنواميس وتسمى (أما - تو - آن - كي) أي الام التي ولدت السماء والارض، وتسمي أيضاً (أما - باليل- و - تو - دنكر) أي الأم الاولي التي ولدت الآلهة (انظر الحوراني ١٩٧٨ : ١٣٣) .

إن الزمن الأول (أوريا) والمكان الأول (آن - كي) يشكلان في ذهن كل شعب من الشعوب نقطتين عميقتين في الوجدان، وتسبغ عليهما صفة القدسية الكاملة ، ويتحولان إلى جذرٍ للزمان المقدس، وجذرٍ للمكان المقدس.

إن الزمان المقدس «هو زمان ميطيقي ، بدئي ، لا يتواجد مع ماض تاريخي، زمان أصلي بمعنى أنه انبثق «فجأة» لم يكن مسبوقاً بزمان آخر، لأنه ما من زمانٍ يمكن أن يوجد قبل ظهور الحقيقة التي ترويها الاسطورة» (إلياد ١٩٨٧ : ٧٠).

إن الزمان الأول الذي انبثق عن الكوزموغونيا السومرية اصبح الزمان المثالي لكل الازمنة الأخرى، وأحيط بالقداسة بل أصبح هو جزءاً من (المقّدس)، وبذلك كانت تتم استعادته سنوياً مع اعياد رأس السنة السومرية، فأيام الاعياد هذه ايام مقدسة تقطع مسرى الأيام الدنيوية العادية لبقية العام.

بعبارة أخرى « يكون في العيد إسترجاع لأول ظهور من الزمان المقدس كما حصل في الأصل، «في ذلك الزمان» . ذلك لأن الزمان المقدس الذي يجري فيه العيد لم يكن له وجود قبل «البوادر» الالهية التي يجري إحياء ، ذكراها في العيد ، (إلياد ١٩٨٧ : ٦٨).

أما المكان الأول (أن - كي) فكان يضم الأرض والسماء في حالة اندماج وإتصال وتصف الأدبيات الرافدينية هذا الجبل بأن نهايته في السماء وقاعدته المحيطة به هي الأرض، وأن الآلهة تجتمع على قمته .

ويتحول المكان الأول في الأساطير وفي الوجدان الجمعي إلى (مركز العالم) أو (سُرة العالم) ولذلك يولد العالم من هذا المركز، وينتج عن ذلك أن هذا المكان المثالي المقدس يصبح النموذج الاصلي أو البدئي لكل ما سيفعله الانسان على مستوى المكان (السكن أو البناء أو التطويب لمكان). «إن الاقامة في أرض تكرر فعل نشوء الكون. بعد أن

بيّنا ما للمركز من قيمة كوسموغونية، صار بوسعنا الآن أن نفهم بصورة أفضل لماذا يكرر كلُّ بناء يشيده الإنسان خلق العالم إنطلاقاً من نقطة مركزية (السّرة) علّى صورة العالم الذي ينمو ابتداءً من مركز ويمتد نحو الجهات الاصلية الاربع» (الياد ١٩٨٧ : ٤٥).

وتحدثنا الكثير من ثقافات العالم عن جبال اسطورية أو واقعية تقع في مركز العالم مثل جبل ميرو في الهند، وهرابر زايتي في ايران، وجبل جريزيم في فلسطين، و(جبل البلاد) في وادي الرافدين وهو جبل اسطوري يفسر لنا لماذا كان السومريون يرسمون بنفس العلامة الكتابية الجبل والبلاد باعتباره الجبل الكوني وليس لأن اصولهم جبلية!

كان (دوكو) يعني بالسومرية (الجبل المقدس) والمقصود بذلك مكان تجمع الآلهة في المنطقة الجبلية الشرقية لبلاد وادي الرفدين (ترد في اسطورة لاهار واشنان). وكان يقصد بالإسم (دوكو) في نصوص العصر البابلي الحديث المكان الذي كان يقيم فيه الإله مردوخ في معبده الرئيس في بابل ليقرر من هناك مصاذر البشر (انظر اذزارد ١٩٨٧ : ٩٥).

وسيصبح المعبد لاحقاً تقليداً لشكل هذا الجبل الكوني، حتى أن اسم المعبد في الكثير من المدن السومرية كان يسمى (دور- أن - كي) أي (صلة ما بين السماء والارض) أو إرباط السماء والارض)، فكلمة (دور) السومرية تبدو وكأنها اعادة دورية للجبل الكوني (أن - كي) في هيئة المعبد وكذلك الزقورة.

١. المرحلة الكوزموغونية الأولى :

وإذا ذهبنا أعمق في التحليل المثولوجي لحادثة الخليقة السومرية فلا بد لنا أن نحلل شخصية الإلهة السومرية الأم الأولى (نمو أو نامو) تحليلاً يتناسب مع قدسية (التكوين) الذي هو في رأينا جوهر أي مثولوجيا.

أنحدرت الطبيعة الانثوية للالهة (نمّو) من عصور بعيدة ربما تعود إلى العصر الحجري الحديث (النيوليت) عندما سادت الالهة الام ذلك العصر كله طيلة أكثر من ثلاثة آلاف سنة شمال وادي الرفدين. وانحدرت الطبيعة الفيزيائية (المائية) لها من المحيط المائي الذي وجد السومريون نفسهم فيه خصوصاً الأهوار ومياه الخليج العربي ومياه دجلة والفرات وفروعهما.

وهي اذ تقابل الآلهة الام البابلية (تيامت) فإنها تختلف عنها اختلافاً جذرياً لأن

تيامت تمثل المياه المالحة ويقابلها أبسو زوجها الذي يمثل المياه العذبة، لكننا لا نرى مثل هذا التمايز في (نمو) فهي اذن تمثل المياه بصورتها المطلقة أو بصورتها المزدوجة (المالحة والعذبة) أي مياه البحار والانهار. ورغم أن الألهة (نمو) لا تذكر كثيراً في الأساطير ولا تعرف لها اسطورة خاصة بها، الا أن دورها كان عظيماً فقد ظهرت منها كل الآلهة والسومرية، ولما جاء دور خلق الانسان ظهرت الالهة (نمو) كمساهمة في خلق الإنسان فهي اذن خلقت الآلهة والانسان معاً.

نمو، اذن الاصل الحي الذي ظهر منه الوجود كله (العالم، الآلهة، الانسان) وكانت (نمو) تدل على الإكتمال المطلق وعلى كل مادة الكون، فهي غنيةٌ بنفسها ولا تعنيها المخلوقات، لقد كانت الشعوب ترمز لاكتمال الأنثى المائية الاولى بالاوروبوس « وكانت عذراء لأنها ابتدأت الكون، فيما بعد، من خصبها الذاتي دون معونة من مبدأ ذكري مشارك لها في أزلها، فتولدت عنها الموجودات كما يتولد النور من مصدر الاحتراق، وإليها تعود الموجودات في نهاية الأزمان لتعنى فيها وتبقى وحدها لتلتف على نفسها، كما كانت، دائرة مكتملة، بعد أن يهدأ صخب الوجود وتسكن حركة السالب والموجب وتتصالح المتناقضات) (السواح ١٩٩٣ : ١٥٨).

إننا نرى أن جدل السكون والحركة هو الذي جعل (نمو) تلد جبل الكون ولم يحصل ذلك بالفعل الجنسي الذي يراه طومسون حول هذا الموضوع عندما يرى أن الثنائية البدائية ليست هي ثنائية عنصرين اثنين مفردين بل هي ثنائية مكونة من نصفي قبيلة واحدة هما شخصية جنسية ذكرية وانثوية، ذلك لأن رجال النصف الأول من القبيلة تزوجوا مع نساء نصفها الثاني (انظر Thomson 1961: 69).

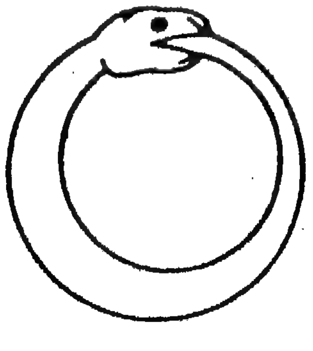

شكل (١٦)

الاوربوس (الافعى التي فمها في ذيلها)

الام الكونية الأولى

ويمكننا من منطلق جديد، مناقشة مبدأ الخلق الكوني (الكوزموغوني) في المثولوجيا السومرية عن طريق الكلمة (أو ما تسمي في اليونانية والمسيحية باللوغوس)، ففي اللغة السومرية هناك كلمة (نّم) التي تعني خواص الشيء وفعله وقدرته وقدره . . وقد ترجم الاكديون هذه الكلمة إلى (شمتو) أي السمة والأسم والطبيعة الكامنة فيه، ويبدو أن هذه اللفظة ما زالت حيّة في اللغة العربية حيث (نم) تعني جوهر الانسان وطبعه وكل ما ينّم عنه. وسنناقش ذلك تفصيلياً في الفصل الثالث.

لكن الغريب أن كلمة (نم) قريبة جداً من (نمّو) وهذا يعني أن معنى (نم) كامن (نمو) أي أن (نمّو) تعني سمة واسم والطبيعة الكامنة لهذه الالهة التي بفعل اسمها وكلمتها الكامنة فيها تحرك الحلق وبدأ، خصوصاً اننا اذا تعاملنا بالقاموس العربي مع كلمة (نمو) فإننا نجد أن فيها معنى (نام) ومعني (نمى، نمو) وهذا يعني أن هذه الالهة التي كانت نائمة تحركت خواصها أو (نمّها) وبدأت (تنمو) وكان من هذا النمو أو الحركة أن ظهر حبل الكون (آن-كي).

إذا أخذنا بنموذج (المسكون والحركة) أو (الاوربوس وهي الأفعى الكونية المائية التي ذيلها في فمها وتكّون دائرة مغلقة) أو (الكلمة) فأننا نرى في جميع الأحوال أن (نمّو) تحركت على محورها ونتج عن حركتها انفتاح الذيل عن الرأس، والسالب والموجب، وتكوّنت كتلة جديدة بقطبين هي (الجبل الكوني) وبذلك تكون المرحلة الكوزموغونية الأولى قد انتهت وكانت حركة الاوربوس، وحركة (نمو) على محورها قد تمت برغبة محضة من الالهة السومرية الام الأولى (نمّو) دون استجابة لشيء. فهو خلقٌ ذاتي انبثق من داخل الكلمة نفسها وليس بأمرٍ منها.

٢. المرحلة الكوزموغونية الثانية

بعد أن تكون جبل الكون (بفعل انفتاح أوروبوسي) عاد اوربوس (أن-كي) وانغلق ثانيةً واصبحنا أمام أوربوس كوني (غير هيولي أو عمائي) ونرى أنه بفعل اطلاق الاسم (النم) أو الكلمة تحرك هذا المغلق الجديد وحركته هذه خلقت هذه المرة عنصرا الذكورة والانوثة، وهنا في هذه المرحلة يمكننا (وفق النصوص المسمارية) الحديث عن الخلق الجنسي الذي أمرت به (نمّو) بكلمتها (نم) لأن يسمّى الأعلى من جبل الكون السماء

ويكون ذكراً، ويُسمى الاسفل من جبل الكون والأرض وتكون انثى .

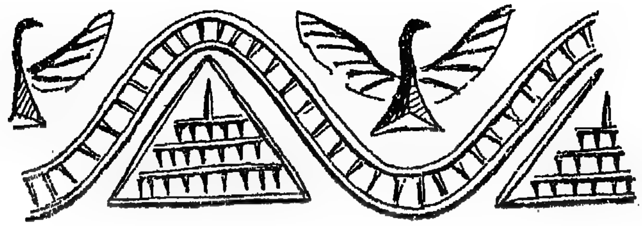

بشكل (١٧)

جبل اسطوري سومري

إن حركة الأوربوس الثاني لم تكن ذاتية (كما في الأول) بل بدأت بالكلمة ونفذت بالجنس، لأن بعض الاشارات السومرية تصف السماء والأرض قبل خلقهما بأنهما لم يكن لهما اسم، وعندما أصبح لهما إسمين كانا ملتصقين وبدءا بممارسة الجنس، وكان ان ولدا الاله (انليل) الذي وضع بينهما، ولكنه كلما كان يكبر كان يبعد الأب عن الام، كان الهواء أو الفضاء الذي يمثله (إنليل) يبعد (آن) عن (كي) فينفصلان، ومطلع اسطورة (خلق الفأس) توضح لنا ذلك :

«الرب الذي يملك حقاً، هو الذي أظهر للعيان

الرب الذي لا تبدل في احكامه

(انليل) الذي يجلب البذور إلى الأرض لزراعتها

تولى برعايته فصل السماء عن الأرض

من أجل أن تنمو الكائنات التي خلقت»

(كريمر ١٩٧١: ١٨١).

ونرى في قصيدة أخرى كيف أن السماء أصبحت ملك (آن) وأن الأرض ملك (إنليل) :

«بعد أن ابتعدت السماء عن الأرض

بعد أن انفصلت الأرض عن السماء

بعد أن عين اسم الانسان

بعد أن أصبحت السماء بحوزة (آن)

بعد أن اصبحت الأرض بحوزة (انليل)».

(كريمر ١٩٧١ : ٦٣).

وهكذا أعطتنا هذه المرحلة الكوزموغونية الثانية ثالوثاً الهياً مهماً مكوناً من آلهة (السماء، الهواء، الارض) وهم (آن، انليل، كي).

٣. المرحلة الكوزموغونية الثالثة

هناك ما يشير إلى أن الإله (إنليل) اله الهواء الذي اصبحت أمُه الأرض الالهة (كي) بحوزته، قد اتصل بها جنسياً حيث أنه في حقيقة الأمر أبعد الأب (آن) عنها، أما هو فقد بقي ملتحماً بالأرض متصلاً بها وعلى هذا الأساس تعينت مراحل تنظيم الكون وخلق الانسان وتأسست الحضارة (انظر كريمر ١٩٧١ : ٦٦).

أن هذا الأمر غير الموثّق عندنا بنصّ سومري واضح، يوحي لنا أن الابن أبعد إباه وتزوج أمه (وهو ما يذكر بعقدة أو ديب الفرويدية) وقد نجد الصدى الواسع لهذه الاسطورة في التراث الرافديني في اسطورة بابلية صغيرة هي اسطورة (دُنّو) حيث الأرض تضاجع ابنها (أماكندو) فيقتل اباه ويتزوج الهة البحر، ثم يأتي ابنه لخار ليقتل أباه ويتزوج امه وهكذا. (انظر Grayson 1969: 517).

وهذا يشبه أيضاً الى حد ما مسلسل قتل الآلهة في اسطورة الخليقة البابلية. إن ما يدعونا الى التأمل الحذر في الحادثة السابقة هو محل الاله (إنكي). فهل ظهر الإله (إنكي) من تزاوج (إنليل) مع (كي)؟ وهو ما نشك به ونستبعده تماماً، لأن الإله انكي هو ابن إله السماء (آن) والذي حبلت به وودلته الارض (كي) وهو الذي بنى نواميس الحضارة على الأرض، أما الإله (إنليل) فكان يرعي سلطات أبيه في السماء وأشرف على تنظيم الكون (وليس الأرض) كما سنرى، ولكي نعزز قولنا هذا بنص سومري لا بد من ذكر نص القصيدة التي تذكر ولادة مظاهر الحياة المرتبطة بالاله إنكي وهي كما يلي :

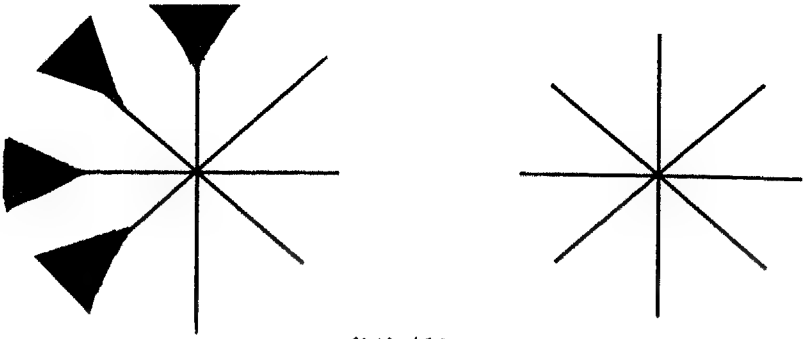

شكل (١٨)

رموز الإله آن

١- الجهات الثمانية (رمز الالوهية) الألف الخامس ق.م

٢- العلامة الكتابية دنكر (الإله، الإلوهية، الاف الرابع ق.م)

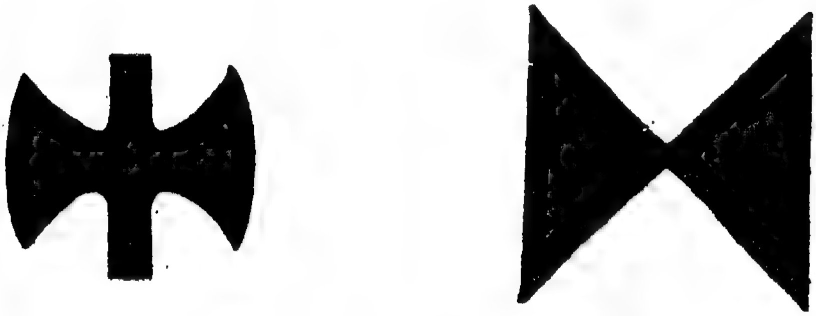

شكل (١٩)

رموز الإله إنليل

١- المثلثان المتقابلان (الألف الخامس ق.م)

٢- الفأس المزدوج (الألف الخامس) ق.م

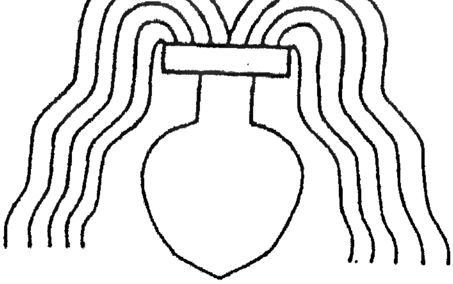

شكل (٢٠)

الكاس (الاناء) الفوّار

رمز الإله إنكي (الألف الثالث ق.م)

«الأرض الفسيحةُ المسطحة لبست تألقها ،
جّملت ببهجة جسدَها
الأرض العريضة ، بالمعدن الثمين واللازورد
زينت جسدها
تبرجت بالينع والعقيق الأحمر البّراق ،
زينت السماء رأسها بأوراث الشجر
وظهرت كأنها الأميرة
الأرض المقدسة العذراء تبرجت
من أجل السماء المقدسة
السماء ، الاله الرائع الجمال ، غرس
في الأرض العريضة ركبتيه
وسكب في رحمها ، بذرة الأبطال
الاشجار والمقاصب
الأرض الطرية ، البقرة الخصيبة تشعبت
بمنيّ السماء الغنيّ ،
وبالفرح ولدت الأرض نباتات الحياة
وبغزارة حملت الارض هذا التاج الرائع
وجعلت الخمر والعسل يسيلان ،،

(الشواف ١٩٩٦ : ٢١)

هذه الصورة لمضاجعة السماء للأرض واضحة جداً ، فقد حصلت بعد أن انفصل كلاهما عن بعضهما ، أي بعد أن ولد (إنليل) ولذلك نعني أن الولادة الثانية حصلت بعد الانفصال وانتجت الإله (إنكي) وهو سيد الأرض الذي تولى بعنايته الأرض كما سنرى .

نحن الآن أمام رابوع إلهي هو (السماء، الهواء، الأرض، الماء) وهم آلهة المصائر الكبرى الذين سيطروا على الكون بأكمله .

٤. المرحلة الكوزموغونية الرابعة

لو نظرنا إلى شجرة أنساب الآلهة السومرية ضمن القسم الثاني من هذا الفصل وتأملنا ها ملياً لوجدنا أن الخليقة الآن من الناحية العملية أصبحت خاضعة الآن لنوعين من الكوزموغونيا كل واحدة يديرها إله وهما :

(أ) كوزموغونيا إنليل : الذي امتلك سلطان آن وأصبح بديلاً عنه تقريباً وتضمّ خلق عوالم الظلام والعالم الأسفل والكواكب والانواء الجوية من رعد ومطر وبرق وعواصف ، وتحيط هذه الكوزموغونيا الأرض وتغلفها وتمدها ببعض مظاهر الحياة إلاّ أن الموت والجماد يسيطران عليها . فهي تنتج الكواكب الثلاثة المهمة (القمر ، الشمس ، الزهرة) وآلهتها وتنتج الظلام والعالم الأسفل وآلهة الأنواء الجوية . وكل هذه الآلهة آلهة سلطات وتدل في انحدارها السلالي على أنها تميل إلى القوة وربما إلى الموت .

(ب) كوزموغونيا إنكي الذي يمثل الأرض والماء معاً ، وبلا أدنى شك فإنّه يمثل الحياة والإخصاب والتناسل ، وإذا لاحظنا شجرته الإلهية فسنلاحظ أنها تضم (النباتات والحيوانات والإنسان) ثم ادوات العمران والحضارة . إن عالم إنكي يضم كل ما هو حي ويدعو إلى الحياة والبقاء والتناسل وهو عالم أرضيّ محض يرى أن الأرض هي الحياة ، ولا يوجد خارجها ما يشير إلى الحياة برغم وجود الآلهة الخالدة .

ومن الآن فصاعداً (على المستوى الكوزموغوني) سنرى العلاقة الإيجابية والسلبية بين العالمين (عالم انليل) و(عالم إنكي) وسنرى أن أغلب زوجات ذكور عالم إنليل هنّ من عالم إنكي وهذا يمثل الوجه الإيجابي للعلاقة ، أما الوجه السلبي فسيكون في الصراع بين بعض الآلهة في العالمين وقد يكون اشهر الصراعات واكثرها وضوحاً ذلك الصراع بين الإله الإنكوي (دموزي) والإلهة الإنليلية (إنانا) كما سنفصل ذلك فيما بعد .

الكوزمولوجيا السومرية (علم الكون السومري)

بعد ان ترصدنا كيفية نشوء الكون والعالم عند السومريين من خلال الآلهة وأجيالها، يمكننا الآن أن نرى طبيعة هذا الكون وم يتكون وشكله وأقسامه.

يظهر لنا الكون السومري كله طافياً أو سابحاً فوق بحر هيوليّ من تالماء تمثله الالهة السومرية الام (نمّو) التي تحيط به من كل الجهات والذي لا نهاية له، أعني ماء نمّو (شكل ٢١)

أما الكون فهو عبارة عن كرة عملاقة تتكون من الأقسام التالية:

١- **العالم الأعلى (العُلى)** وهو الفضاء الذي فوق السماء حيث تسكن الآلهة السماوية فيه.

٢- **السماء (آن)** وهي سطح صلب على شكل قبة يحيط قرص الأرض الذي تحتها «أما ماذا كان يعتقد أن تكون هذه الكتلة السماوية بالضبط فإنه أمر ما زال غير مؤكد، ومن المحتمل أنها كانت قصديراً وذلك استنتاجاً من حقيقة أن التعبير السومري من القصدير هو «معدن السماء»، (كريمر ب.ت: ١٤٩).

ويعتقد أن في قمة السماء أو على السماء السابعة هناك الـ(أنونّا) وهو اسم يعني بالسومرية (بذرة الحياة الأميرية) ويشير الى جموع الآلهة في السماء والأرض ثم اصبح يشير الى أيّ مجموعة من الآلهة حتى المحلية منها.

٣. **الفضاء (ليل Lil)** : وهو الفراغ الموجود بين السماء والأرض وكانت كلمة ليل التي تدل على الظلمة تعني أيضاً الريح، الهواء، والنفس، الجو، الروح وتمتاز بقدرتها على الحركة والامتداد.

وكان السومريون يعتقدون أن الكواكب والنجوم مكونة من نفس مادة (ليل) أو (الجو) مع امتيازها عليها بالإضاءة والاشراق. والكواكب، في حقيقة الأمر ظهرت من الظلام فهي بناته (وهذا ما يقول به الصائبة أيضاً) وهي من الناحية النسلية بنات الاله إنليل سيد الفضاء أو الهواء.

ويبدو أن السومريين حددوا ،في زمنهم، ثلاث طرق أو مسارات في هذا الفضاء هي (طريق آن ، طريق انليل ، طريق إنكي) وتتوزع الكواكب الثلاثة فيها (الزهرة ، القمر، الشمس).

٤ . **الأرض (كي KI)** : وهي قرص مدوّر منبسط يطفو علي محيط مائي حوله وتحته ، أي يمكن تصنيف هذا المحيط المائي إلى ثلاثة :

١ . البحر الأعلى وكان المقصود به البحر الأبيض المتوسط .

٢ . البحر الأسفل وكان المقصود به الخليج العربي .

٣ . البحر العميق الذي تحت الأرض وهو (أبسو) أي مياه الأعماق التي فيها مسكن الإله (إنكي) . وهي مقر الإلهة (نمو) وهذا يعني أن الأرض تحيطها المياه من كل الجهات ما عدا الفضاء الأعلى الذي كان يفصلها عن السماء ، وتعيش على الأرض النباتات والحيوانات والإنسان . وكان مركز الأرض في نظر السومريين هو سومر ، أما مركز سومر فكان نيبور (نفّر) لانها أقدس مدينة دينية سومرية كونها مدينة انليل ، وكان مركز نفّر منطقة اسمها (أوزموا) وهي التي تشبّه بسرّة الأرض حيث هي آخر منطقة كانت السماء متصلة فيها مع الأرض .

أما سومر فمحاطة من جهاتها الأربع بمدن ودول أخرى فمن الشمال (سوبار) وهي في شمال وادي الرافدين (منطقة آشور لاحقاً) ، ومن الجنوب دلمون وهي البحرين، ومن الشرق عيلام جنوب إيران وهي الاحواز أو عربستان ومن الغرب أمورو أو أمارتو وهي الصحراء العراقية السورية الغربية (غرب الفرات) .

٥ . **العالم الأسفل (كور أو كيگال)** وهو الفضاء الذي يقع تحت الأرض والأبسو ، وتعيش فيه آلهة العالم السفلي ، ويسمى هذا العالم بأسماء عديدة منها (أرض اللا عودة ، الأرض البعيدة ، أرض الموتى ، أرض الأحزان، القفراء . . . الخ) وهو عالم مظلم تسيطر عليه عائلة إلهية مكونة من نرگال وأريشكيگال وأبنائهما وأحفادهما من الألهة ، وتسكن أيضاً الشياطين وهي كائنات سلبية مفزعة ، وتسكنه أرواح الموتى من البشر .

وهناك للعالم الأسفل مدخل رئيسي مكون من سبعة أبواب تنتهي بنهر العالم الأسفل الذي اسمه (خبر) والذي يؤدي فيما بعد إلى أماكن الموتى ويتوسط قاع العالم الأسفل قصركبير للالهين نرگال وارشكيگال ، وأحياناً يجتمع فيه الانوناكي (الذين يسمون هنا قضاة العالم الأسفل) .

إن هذا التصور المثولوجي للكون يضع الأرض في المركز ويتصورها مثل قرص

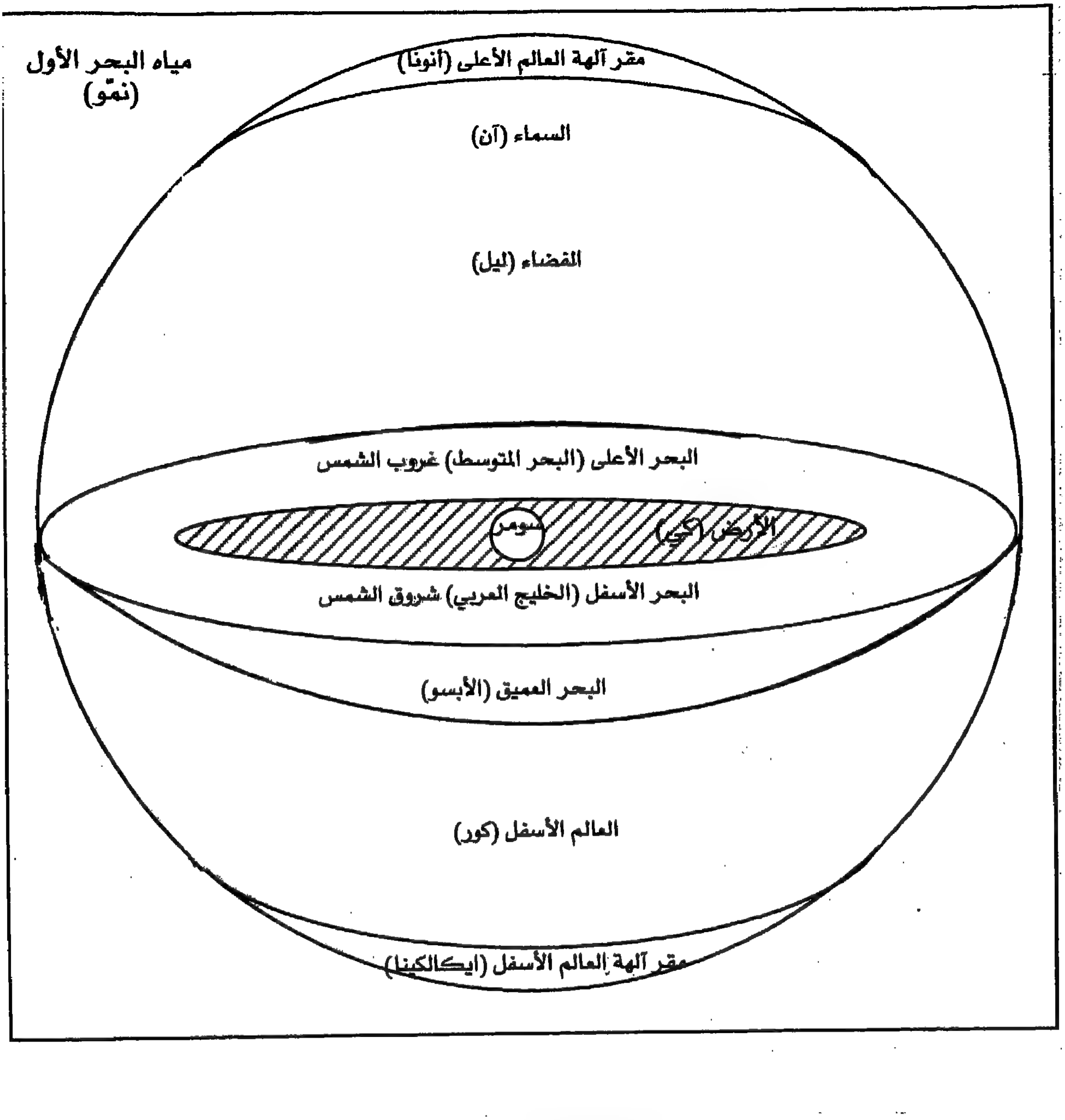

شكل (٢١)
الكوزمولوجيا السومرية
صورة الكون عند السومريين